

# ناجون.يات من حرب الحدود الاستعمارية الجديدة شهادات مغربية عن طرق الموت



بقلم: منتصر ساخي و وائل القرناوي

المؤلفين : منتصر الساخى و وائل القرناوى  
الترجمة : برهان الهلاك Roots prod  
التصميم و الرسوم : ياسين الورغمى

نشر هذا العمل بدعم من مؤسسة روزا لوكسمبورغ، مكتب شمال إفريقيا وان  
محتوى هذه المطبوعة لا يعبر بالضرورة عن موقف المؤسسة.  
مؤسسة روزا لوكسمبورغ - شمال إفريقيا  
عدد 55 مثلث ، نوح غرة جوان، ميتيال فيل 1082 تونس.  
[infotunis@rosalux.org](mailto:infotunis@rosalux.org)

منتصر ساخي، أستاذ مساعد في كرسي التحولات بجامعة محمد السادس متعددة التقنيات (المغرب).  
يحمل دكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة باريس 8، وهو باحث مشارك في قسم الأنثروبولوجيا بجامعة  
KU Leuven (بلجيكا). صدر له كتاب الثورة والجهاد: سوريا، فرنسا، بلجيكا (لا ديكوفرت، 2023).  
تتمحور أبحاثه حول تحولات الأيديولوجيات في العالم العربي (لا سيما سوريا والعراق والمغرب وتونس)،  
والحدود الاستعمارية الجديدة للسياسات الأوروبية المتعلقة بالهجرة.

وائل القرناوي، أستاذ مساعد بجامعة سوسة و دكتور في التحليل النفسي وعلم النفس المرضي من جامعة باريس و مؤسس شبكة باحثين في "دراسات الحدود" بمركز الأنثروبولوجيا في سوسة (2021)، حيث يُجري أبحاثه حول سياسات الهجرة والحدود وتأثيراتها في الذاتيات السياسية لسكان الجنوب العالمي ولا سيما في السياق التونسي.  
وهو مؤلف كتاب الحرقة والرغبة في الغرب (نيرفانا، 2022)

# المحتوى

6	مقدمة
8	1 - "حرّافة" محترقون
8	مذكرات سفر، بني ملال، فبراير 2025
13	غالي وصلاح: شهادات لصالح الموتى وتعبير عن التزام الناجين. ات بقضيّة الاختفاء
15	فرز عن طريق الموت في الجنوب، وسيطرة عن طريق الإيذاء والاعتقال والترحيل في الشمال
19	2 - المقابلة مع فايز
19	تحدي وإستيمولوجيا الطّرق المحظورة
31	خاتمة

يستند هذا الفصل إلى شهادات ثلاثة مهاجرين مغاربة ناجين في تفكيك بعض آليات الموت المعاصرة على الحدود الأوروبية؛ حيث تشكل مسارات هؤلاء الناجين مادة تجريبية مُحدّدة لفهم مدى تأثير عنف الحدود وأنماطه. ولكن يتجاوز رهان اشتغالنا في هذا النطاق توثيق أوجه التعمد في التسبب بالموت وتعرّض المهاجرين. ات للآذى والحوادث المميتة من خلال شهادات الناجين. ات، بل يدعو المقال إلى تجاوز الفجوة التحليلية المزمّنة في جزء من الأدبيات الأفريقية وأدبيات النقد الأفريقيّة (Afro-critique)؛ حيث يشيع الفصل بين "الأفارقة السود" و"أفارقة شمال أفريقيا" في معرض دراسة الآليات الحدودية القاتلة. ويكرّس هذا التقسيم ضمنا فصلا عنصرياً أرسّته وأدامته الخطابات والممارسات الحكومية السائدة في دول الشمال العالميّ، في الوقت الذي يتواصل فيه تطبيق سياسات الهجرة على شعوب المستعمرات السابقة غير الأوروبية على نحو تراكمي وعشوائي عبر كامل القارة الأفريقية، بغض النظر عن الانتماء العرقي أو اللغوي أو الوطني للمهاجرين. ات. المحرومين. ات من تأشيرات الدخول، وبالتالي من الحق في حرية التنقل.

تحثُ الشّهادات الثلاث المنقولة في هذا الصّدّد على إعلاء وحدة التجارب الأفريقية المادية في مواجهة نظام الحدود؛ حيث يخضع المغاربة /المغربيّات والتونسيون. ات والجزائريون. ات والسوريون. ات والسودانيون. ات والسنغاليون. ات لنفس القيود المفروضة على حريّتهم. ن في التنقل ويجابهون ذات المجازفات القاتلة على نفس الطرق الخطرة والوعرة والطويلة<sup>1</sup>. كما أنّهم. ن مواضيع لنفس أنماط الفرز ما بعد الاستعماري التي تشكل بنية منطقة شنغن. ويهدف تتنّع شهادات المهاجرين. ات الناجين. ات القادمين. ات من المغرب والبحر الأبيض المتوسط لاستعادة ترابط تلك التجارب في مواجهة الأطر التفسيرية التي تعمل على تشيبتها. ويحمل هؤلاء الناجين. ات من الطرق الخطرة، ولا سيما منهم. ن الناجين. ات من الحوادث القاتلة والذين شهدوا. ن موت مهاجرين. ات آخرين خلال ذات الرحلة، ذاكرة حية عن حرب الحدود؛ حيث يتّيحون فهمًا أفضل من خلال تجاربهم الجسدية لتواصل سياسة تدمّر وتصنّف وتنتقي الأجساد الأفريقية القادمة من المغرب الكبير والساحل الأفريقي وكل البقاع التي تتدخل فيها منطقة شنغن وأنظمة التأشيرات لتستحيل عائقًا أمام الحق في حرية التنقل.

ونحن إذ نعرض هذه الشهادات في صيغتها الأصلية (من خلال مقتطفات من مقابلات نقلها كاملة في بعض الأحيان)، فإننا لا نسعى إلى إعادة تشكيل خريطة جغرافية للموت والآذى والاختفاء تربط بين شواطئ المغرب الكبير والساحل الإفريقي ومناطق أخرى من أفريقيا وأوروبا. بل تندرج هذه التجارب في سياق دوامة العنف الاستعماري الجديد المتواصل الذي يطال بصور متباينة ولكن مترابطة جميع المهاجرين. ات الأفارقة العالميين. ات بين تروس آلية استعمارية حدودية تتغير معالمها في إطار إعادة التشكل.

يجري التحليل على ثلاث مراحل.

**المرحلة الأولى:** تمكّنا مقابلة إثنوغرافية قوامها ملاحظات جُمعت في مدينة بني ملال (إثر لقاء أسر من منطقة الأطلس المتوسط تواجه كل منها فقدان أحد أفرادها) من إدراج هذه الدراسة

1. عبّر الصحراء الكبرى مسرح للمدابع التي تستهدف الأفارقة السود في المقام الأول، وذلك بسبب سياسات تصدير الحدود وحظر السفر مباشرة من عواصم البلدان الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

الاستقصائية في سياق تجارب المجتمعات المحلية المنكوبة بفقدان أبنائها/بناتها على الحدود. وقد قادتنا مرافقة هذه العائلات إلى لقاء أحد الناجين وإسمه غالي؛ وهو الذي كان شاهداً حياً على حادث غرق سفينة أسفر عن وفاة 41 مهاجراً. كما يوفر سرده للحادث المأساوي منطلقاً في مسار استيعاب الدمار الذي لحق بالشباب وفئات إجتماعية وعمرية أخرى مغربية من جرّاء الحدود.

**المرحلة الثانية:** ستستكمل تجربة غالي بالتجربة التي عاشها صلاح؛ وهو مهاجر مغربي رُفضت طلباته للحصول على تأشيرة. كما أنه أحد الناجين من حادث غرق قبالة سواحل مدينة طانطان المغربية بعد أن شهد وفاة العديد من المهاجرين عبر طريق أخرى نحو أوروبا تمرّ عبر المحيط الأطلسي. وتتيح شهادته توسيع نطاق تحليل مختلف أشكال التعرّض للموت وآثارها على مشاريع الهجرة.

**المرحلة الثالثة:** نقترح في هذه المرحلة الثالثة تحليلاً مُفصّلاً لشهادة فايز الذي التقينا به في تونس ضمن مجموعة من الحرّاقة المغاربة. ويضيء ثراء شهادته التي وصف فيها الرحلة المحفوفة بالمخاطر عبر طرق البلقان بروز إستمولوجيا للهجرة كان قد شكلها المهاجرون. ات أنفسهم. تشمل على تحديد طرق السّفر وتنويعها بغية تفادي قوات الشرطة التي لا تتوانى عن القتل وعلى تداول قصص النجاة وإنتاج ومراكمة معارف تسمح بالتفاوض على الهجرة والصمود في حرب الحدود.

ويضيء هذا الفصل من خلال الشهادات المذكورة تجاوز السياسات النكرووية (سياسات الموت) الأوروبية لمجرّد القتل أو الإيذاء أو الطرد نحو خلق ظروف مواتية لإنتاج معارف مضادة في مجال الهجرة تقاومها متى توافرت أطر «الهجوم المضاد»، لا سيما في أفريقيا وحدثها تجربة المعاناة المشتركة في مواجهة عنف الحدود الأوروبية.



# 1 "حرّافة" محترقون

■ مذكرات سفر، بني ملال، فبراير 2025

انتهيت بعد الساعة الثانية ظهرا بقليل من لقاء جمعي بعشرات العائلات في مقهى بوسط مدينة بني ملال عند سفح سلسلة جبال الأطلس المتوسط<sup>2</sup>. لقد تحدثت كل أم من الأمهات الحاضرات عن مغادرة ابنها نحو أوروبا. وقد جمع بينهن عدم ورود أي أخبار عن أي من أبنائهن الاثني عشر منذ أن أبحروا في العام 2023 على متن ثلاث قوارب انطلقت كل

2 قام منتصر ساخي بتجميع هذه الملاحظات

منها على حدة بفارق بضعة أشهر. لقد أحضرن جميعهن ملفات وسلّمنها لي على أمل أن أرسلها إلى الجمعيات الإسبانية<sup>3</sup> المعنية بقضايا المفقودين. ات قبالة سواحل جزر الكناري الإسبانية. وعاهدتهن على أن أرسلها إلى تلك الجمعيات، وهو وعد وفيت به بعد بضعة أيام، مرسلًا نسخًا من رسائل البريد الإلكتروني إلى بعض الأخوات خريجات الجامعات اللواتي يساعدن في البحث عن إخوانهن. وقد تلقيت بعض الردود التي أتت سلبيةً.

انزوت شاية في عزلة بالمقهى الذي تجمعت فيه العائلات حول جهاز التسجيل الصوتي لتروي مسارات حياتها وتصف بقايا حياة محطمة. ثم أسرت لي الشابة برغبتها في التحدّث إليّ على انفراد إثر انتهاء المقابلة مع العائلات. واقتربت مني ما أن تفرق جمع الحاضرين، وقالت: "قصتي مختلفة، ذلك أن لي أختًا كانت قد فقدت. لا أريد أن تكشف هويتي حتّى للعائلات. لقد ركبت أختي قاربا لم يحمل امرأة سواها، في حين كان البقية رجالا." واعتري صوتها رجفان، لتواصل قائلة: "انطلق القارب يوم 16 شتبر (سبتمبر) في العام 2023 قبالة سواحل العيون. ولم يُعثر إلا على 7 من بين 48 شخصا كانوا على متنه، وأما الباقون البالغ عددهم 41 شخصا فلم ترد أي أخبار عنهم."

إلا أن سناء (مُحدّثتي في المقابلة) تؤكد أن رقم الواتساب الخاص بأختها كان لا يزال قيد الاستخدام قبل بضعة أسابيع؛ إذ قالت: «أنا أبعت برسائل أرى أن شخصا ما يقرأها دون أن يرد»، ومدتني بهاتفها سامحة لي بالقراءة والاستماع إلى الرسائل الصوتية. لقد عاينت بعض الرسائل الصوتية المحفوظة بحرص والتي تعود إلى بضعة أيام قبل الاختفاء في شتبر العام 2023؛ واحتوت الرسائل تفاصيل عن مسار الرحلة والساعات الأخيرة قبل الإبحار، إضافة إلى دُعاء سناء متضرّعه لله أن يتلطف البحر بأختها. كما لاحظت صوت الأخت المفقودة الحزين الذي بدا وكأنها مستسلمة لتأثير جماعي ما لها من سيطرة عليه. وقد ردت الأخت المفقودة عن أسئلة سناء الملحّة عن الرحلة بأنها لا تعرف بالتحديد المكان الذي تتواجد به رفقة صديقتها (فهي قد سافرت برفقة صديق، وهو ما ضاعف من ثقل العبء الأخلاقي علي عائلتها إزاء العائلات الأخرى وصير شهادة الأخت شبه مستحيلة دون دعم الباحث أو ممثلة عن السُلط الرسمية). كما اتضح من خلال الرسائل الصوتية جهل نوال (الشابة المفقودة) بموعد المغادرة بالتحديد أو نوع القارب الذي ستركبه.

وانقطع التواصل بعد 16 شتبر 2023، حيث باتت الرسائل من طرف واحد في حين بدت واجهة التطبيق وكأنّها جدار تغطيه رموز تعبيرية باكية أرسلتها سناء. ولئن وُجدت رسائل صوتية أخرى لم أستمع لمحتواها، إلا أن سناء أخبرتني عنها قائلة: "أتحدّث إلى أختي أحيانا، وأبكيها وأتصل بها حتى وإن لم تجب." وتظهر في الأسابيع القليلة الماضية رسائل مُعلّمة بأنها "مقروءة" باعتبار ظهور العلامات الزرقاء في التطبيق. وتضيف سناء: "أكدت لي شركة اتصالات المغرب أن لم تتغيّر ملكية رقم الهاتف قط، فهو لا يزال مملوكا لأختي."

تابعت هذه الشابة أصيلة منطقة الأطلس المتوسط دراستها الجامعية حتى حصلت على شهادة الدراسات الجامعية العامة (DEUG) في الأدب العربي (بعد سنتين من الدراسة الجامعية إثر الحصول على شهادة البكالوريا)، قبل أن تضطر إلى الإنقطاع عن الدراسة بسبب ضيق الحال المادي. وأصبحت بذلك عاطلة عن العمل، وقبيلت بزواج مدبر من رجل "لم يدرس قط ولكنه قادر على كسب رزقه"، وهو ما أخبرتنا به خلال مقابلتنا. كما تشرح أنّ زوجها يمنعها من البحث الجاد عن أختها المفقودة، فهو أمر يتطلب التردّد على الجمعيات والخروج بمفردها ومقابلة عائلات أخرى، أو حتى مواجهة "الإدارة والمخزن". بيد أنها تبدّل جهودها سرا وتخفي مساعيها وتحركاتها عندما تتسنى لها الفرصة والوقت لمواصلة البحث. كانت سناء قد اتصلت بي قبل مجيئي إلى بني ملال دون أن توضح نوع المساعدة التي تتوقّعها. أما الآن فقد صاغت طلبها بوضوح: "أودّ لو تتحدّث إلى أحد الناجين السبعة نيابة عني، لعله يخبرني عن طريقك الحقيقة عن أختي". وقد أجابتي بلا تردّد حين سألتها عما يجعلها تعتقد أن هذا الناجي سيتذكّر أختها المفقودة، قائلة: "سيتذكّرها لأنّها المرأة الوحيدة التي كانت على متن القارب."

تواصل سناء موضحة أن الناجي المذكور هو شاب كان قد حُكّم على والده بالسجن اثنتي عشرة سنة لتنظيمه رحلة عبور الأشخاص الثماني والأربعين المذكورين سابقا، والذين كان من ضمنهم ابنه الذي غادر سعيًا للوصول إلى إسبانيا. ونشر الشاب عدّة مقاطع فيديو تروي قصة غرق القارب وسبعة أيام من التيهان في عرض البحر قبل أن يحذفها راضحا

لضغوطات مارستها عليه الشرطة. وتؤكد سناء على أنّ الشاب سيرغب في التحدث إلينا إذا ما اتصلنا به، مصرّة على ألا تكون حاضرة خلال لقائنا به.

مدّتي سناء برقم هاتفه، واتّصلت به على الفور. اسمه غالي، وهو عامل بورشة تصليح سيارات. وقد أعلمته خلال اتّصالنا بأن لن يطول مكوثي في المدينة سوى بضع ساعات، فوافق على موعد على السّاعة الخامسة من مساء نفس اليوم. وتعرّف غالي على سناء حال وصوله وحياها بتحيّة متكّمة، فاخفتت إثر ذلك. ثمّ جلسنا في نفس المقهى الذي كنا فيه بعد الظهيرة.

وما إن جلسنا حتى أسرّ لي غالي قائلاً: "أنا أتفهم إصرارها، ولكنني أخبرتها بالحقيقة عن أختها. تكمن المشكلة في بعض النّاجين. ات الذين يثيرون الشكوك لدى العائلات... وأنا ما قرّرت التحدّث معك إلا لأنني علمت أنك لست شرطياً، وأنك ترغب في مساعدة العائلات. لقد أردت مساعدة العائلات بدوري، بالرغم من فرحتهم بسجن والدي. ولكنها [أي سناء] أدركت الآن أن ما حصل كان ظلماً؛ هل تعتقد أنّ أبي كان ليضعني، أنا ابنه، على متن القارب لو كان مسؤولاً فعلاً أو على علم بالمحرّك المعطوب؟ لقد نجوت من الموت، ووالدي لم يكن يعلم بمسألة المحرك المعطل [...] لم تتخذ أي إجراء لصالح هذه العائلات لمساعدتها. بل إنهم يخدعونهم بقصص كاذبة؛ إنهم مهملون ومتروكون لمصيرهم. إن ما سأشرحه لك هو نفسه ما سبق أن صرحت به في مقطع فيديو أجبرتني الشرطة على حذفه.

ستظلّ شهادة غالي راسخة بأذهاننا لوقت طويل؛ إذ تعكس تجربته كشاهد على الموت والاختفاء الجماعي عنفاً صارخاً يناهض ويتحدى الصمت الجماعي وسياسة التكتّم على الوفيات التي تتسبب بها الحدود. وفي ما يلي مقتطف من شهادة غالي الذي نجى من حادث أودى بحياة العديد من المهاجرين. ات:

**منتصر:** هلاً حدثتني عن ظروف مغادرتكم.ن؟

**غالي:** غادرنا يوم 16 شنتبر 2023 من جنوب أغادير صوب سواحل مدينة لاس بالماس الإسبانية. وقد نجى منا سبعة أشخاص.

**منتصر:** هل أنت متأكد من موت الآخرين؟

**غالي:** لقد رأيت الأمر بأم عيني؛ كنا في عمق البحر، وكنا شهوداً على مصير بعضنا البعض. لا شك لدي في ذلك كما أنه لا شك لدي في وجودي هنا وحديثي معك الآن. كيف يمكنني أن أشك في ذلك؟ ماذا كان يمكن أن يحدث غير ذلك في عرض البحر برأيك؟ تخيل سبعة أيام وسبع ليالٍ قضيناها تتلاقفنا الأمواج في عرض البحر. اشتعلت النيران في محرّك القارب، ثم انشق إلى نصفين في اليوم الأول؛ كانت تلك الحادثة التي أنهت رحلة العبور. وسقط أولاً من كانوا في منتصف القارب، ليتمكّن حفنة منّا من الطفو على سطح مياه البحر والتشبّث بالعوامات المطاطية. بيد أنّ أعدادنا أخذت في التناقص بمرور الساعات وتوالي الأيام، حتّى لم يتبقّ منّا سوى سبعة أشخاص بحلول اليوم السابع حينما وافق صيادون مغاربة أخيراً على إنقاذنا. وللعلم فقد مرّت بنا عدّة قوارب في البحر كان على متنها مغاربة وأجانب دون أن تتوقف [صمت]؛ كانوا ينظرون إلينا ونحن نستغيث طلباً للنّجدة... لقد آثروا أن يشاهدونا ونحن نموت.

**منتصر:** وماذا عن أخت سناء؟

**غالي:** كانت المرأة الوحيدة من بيننا. أذكر أنها صمدت حتى اليوم الخامس أو ربما السادس. كنا قد ثبتناها بالحبل الأخير المتبقي لئلا تغرق، وظللت على عيائتي بها لأنها كانت على مقربة مني وهي متشبثة بالعوامات المطاطية. لقد حرصنا جميعاً على حمايتها أيماً حرص، فكنا نشحذ هممتها ونشجعها على الصمود حتى لا تفقد صوابها بفعل أشعة الشمس الحارقة نهاراً وبرودة مياه المحيط ليلاً، ونذكرها بأن عليها أن تتشبث بكل قوتها كي تتجو. وسبقها على الغرق البعض ممن أعانوها على التشبث بالحبال. لقد فعلنا ما بوسعنا. [صمت]. رحمها الله.

**منتصر:** تعكف العائلات على البحث عن الجثث...

**غالي:** أي جثث؟ [قال مُحملاً بي] لا توجد جثث! نحن نتحدّث عن البحر؛ أتى للجثث أن تصمد في عرض البحر بعد سبعة أو ثمانية أيام؟ وأمّا الذين سقطوا من على القارب وغرقوا فلم يطفوا على السطح أبداً. أعتقد أن الشرطة المغربية أو الإسبانية بذلت جهوداً للغوص بحثاً عنهم؟ كلا، لم يحدث أي من ذلك. فليتغمّدهم بن الله برحمته. لقد ظللنا متشبثين بالأمل لمدة سبعة أو ثمانية أيام، أملين أن تقوم عائلاتنا بإبلاغ السلطات، وأن تأتي طائرة أو سفينة لنجدتنا... لكن لم يحصل شيء من ذلك، على الرغم من أن عائلاتنا كانت قد أبلغت الشرطة عن غيابنا.

**منتصر:** هل ما زلت تذكر كل ما حدث في عرض البحر؟

**غالي:** بلى، لا أزلت أذكر الأحداث كما لو أنها جرت بالأمس باستثناء ما جرى خلال الساعات الأخيرة حين تملكنا الهلوسات **(ملاحظة المترجم: أشير للهلوسات باللفظ العامي المغربي "القرض")**. أشعة الشمس حارقة نهاراً، والبرد قارس ليلاً. كنا نحادث بعضنا البعض حتى تهدأ نفوسنا، بينما عكف آخرون من بيننا على تلاوة القرآن تارة وسرد القصص تارة أخرى بغرض التسلية وتهنئة روع من أوشكوا منا على فقدان صوابهم. حين اعتراهم ن الهديان. وبمرور الوقت بات كل منا حريصاً على أن ينجو بحياته. ها، ناشداة. مصلحته. ها الخاصة. وتواصلت حالات الهلوسة، فسمع أحدهم وهو يعلن أن "سيذهب لاقتناء بعض المستلزمات" وأنه "سيعود"، ليغرق إثر ذلك دون أن يطفو مرة أخرى... ويقول آخر أنه "سمع أمه تتاديه" ويغوص إثرها في الأعماق. لقد كنا نفقد عقولنا؛ يستحيل أن تفارق تلك المشاهد مخيلاتنا نحن الناجين. هل كان بإمكاننا نجدة عدد ممن قضاوا نحبهم؟ لم يكن ذلك كان ممكناً. أمّا نحن الناجون فقد أنعم الله علينا بحياة جديدة، وأمّا الشهداء ممن قضاوا فليتغمّدهم الله برحمته.

**منتصر:** عاينت في مقطع فيديو عرضته العائلات أجزاء من جسدك وأجساد الناجين وقد أصيبت بحروق.

**غالي:** ذلك صحيح، إذ اشتعلت النيران في القارب واحترقت أجسادنا قبل أن تلامس المياه المالحة. لقد رأيت في الدقائق الأولى من الحادث أشخاصاً يحترقون أحياء قبل أن يقفوا في الماء. كما حرق الشمس ومياه البحر المالحة بشرتنا في الأيام الموالية.

منتصر: شهادتك مهمة بالنسبة للعائلات...

**غالي:** أردت أن أدلي بشهادتي، ولكنني واجهت مشاكلًا. ورددت على العائلات عندما خرجت من المستشفى، على الرغم من حروقي وإصاباتي. لقد غمرت رسائلهم هاتفي، بيد أنني أجبته جميع العائلات، رغم أن بعضها قد نعتني بالكذب لأنهم يرفضون تصديق موت أبنائهم/بناتهم. كما سجلت مقطع فيديو تم حذفه بعد ضغوط وتهديدات مارسها المخزن. واعتقل والدي بتهمة "تنظيم عملية هجرة غير شرعية" وحُكم عليه بالسجن 12 عامًا. أنا أعيش الآن مع أمي، وأتحمل جميع النفقات كفاتير الماء والكهرباء ونفقات إيجار مسكننا. وكنت أَسْتَدْعَى باستمرار إلى أغادير من قبل قوات الدرك الملكي والمحكمة. لم أعد أستطيع تحمل المزيد من المشاكل مع المخزن. (ملاحظة المترجم: المخزن في المغرب مصطلح تقليدي يشير إلى النخبة الحاكمة والنظام الملكي والمؤسسات المحيطة به).

تضيء المقابلة التي أوردناها بكل قسوتها حقيقة جوهرية مفادها عدم تمييز حرب الحدود الأوروبية بين المناطق أو الأعراف أو الأجناس متى تعلق الأمر بمهاجمة وقتل أولئك المحرومين. ات من التأشيرات من القادمين. ات من المستعمرات الأفريقية السابقة. ليس المنظور الاستعماري الذي ننتبناه في هذا المجال مجرد قشر أو غلاف نظري، بل إنه يكشف عن نموذج نظام حدودي صمّمته المراكز الاستعمارية الجديدة لدول الشمال العالمي ليُطبق بعشوائية على الأفارقة الذين يُعتبرون دخلاء ويوسمّ حقهم في حرية التنقل بالأشعرية. ويعلق بذلك هؤلاء المهاجرون. ات في دوامة من العنف تصيرهم من موضوعا للعقوبات الاستعمارية، لتفقد بذلك حياتهم من كل قيمة في مواجهة الحرس الأوروبي؛ إذ أنهم من بطم طميمهم. ن تجسّد لنفس الوضع القائم على التعرض للدمار والأذى من خلال حوادث الغرق وعنف الشرطة وقوات الأمن الحدودي والترحيل، فضلا عن اللامبالاة بإنقاذهم. هذه الوفيات هي نتاج مباشر لنظام يستقصّد التسبب في المذابح على حدود القارة الأوروبية ونمط الحياة الغربي المنشود. وتُفرض الحدود بشكل متساو على سكان المستعمرات السابقة من المغرب الكبير وصولاً إلى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى؛ فهي تفرزهم وتشوهم وتصدّمهم وتقتل الآلاف ممن يعتزمون مواجهتها. وتلخص هذه المقابلة المقصد من السياسة التي تدار في ظل آليات الرقابة؛ وهي سياسة لا تخلف وراءها سوى قصص متفرقة وشهادات مبتورة يروي أغلبها الناجون. بات من رحلة عبور موجهة لمن حرمان من تأشيرات الدخول.

ترصد هذه الشهادة في واقعة واحدة التجارب المتفرقة والمريرة التي تعيشها أمهات وأسر ومجتمعات المفقودين. ات؛ إذ تكون الأسر من أوائل من يواجهون مثل هذه الشهادات في مساعيهم التي لا تكل في البحث عن الحقيقة بشأن أبنائهم/بناتهم المفقودين. ات. كما تبرز هذه الشهادة كيفية تطبيق الدولة ما بعد الاستعمارية لاستراتيجيتها الرامية إلى إحباط تكوين وعي جماعي ورفض الاعتراف بالحقيقة الكامنة وراء حالات الاختفاء في سياق تعاطيها مع سياسة تصدير الحدود الأوروبية. وتكشف الدولة بذلك عن الدلالات الخفية لغياب الاستجابة الرسمية القانونية؛ حيث اعتماد استراتيجية للتستر على الماسي والتوهين من فداحة الوفيات، ناهيك عن إصرار على رفض توفير الرعاية لأسر الضحايا. وتتصرف الدولة وكأن الوفيات مأس معزولة لا تأثير لها على الأسر ولا الأقارب والسيرورة الجماعية للمجتمع، وأنها لا تخلف ندوبا غائرة في حاضر المجتمع لتشوّه مستقبله.

ترتكز هذه الاستراتيجية في جوهرها على حقيقة رئيسية مفادها أن التحقق من الوفاة وإثباتها (سواء من خلال وسائل الطب الشرعي من قبيل إجراء تحاليل الحمض النووي لتحديد هوية الجثث المدفونة في ظروف مهينة ودون التثبيت من هويتها، أو من خلال تحقيق قضائي يؤكد الوفاة) سيبقي فتح نقاش حول حقيقة حالات الموت الناتجة عن عنف النظام الحدودي. وهذا يتضمن الاعتراف بأن المشاهد التي وصفها غالي تعزي واقع حيوات وأرواح اعتبرت بلا قيمة، وتوجب الاعتراف بها من خلال التعبئة؛ إن أرواح هؤلاء المغاربة (وهم جزء من القارة الأفريقية) الذين حرقوا من أحياء وهذه الجثث التي لم تكرم بمثوى لها وهذه الذوات التي جردت من إنسانيتها واعتبرت فائضة عن الحاجة لها مستضعفة وعرضة للتضحية بسبب ما يسميه



أشيل مبيمبي (Achille Mbembe) بالسياسة النكرووية (La nécropolitique) (سياسة الموت).<sup>4</sup>

تعرض هذه الشهادة المصير المحتوم للعديد من المفقودين. ات قبل وفاتهم. إذ تخبرنا عن جثث تحترق في عرض البحر وعن نداءات استغاثة متكررة على مدى سبعة أيام لم تلق أي استجابة. وتختزل بذلك هذه التجارب واقعا مريرا يعيشه من يعانون من التحيز العنصري ويحرمون من الحق في حرية التنقل، ليلقوا حتفهم. على الحدود. إلا أنه يتم تلطيف هذا الواقع المسم بال العنف الشديد في العديد من الأعمال التي لا تزال تعالج الهجرة من منظورات استثنائية أو استشرافية تتضمن تفاصيل ثانوية تطمس حقيقة الموت. بينما تتكرر يوميا المشاهد التي وصفها غالي، والتي تفتقر إلى أي مساحة نقدية للتعبير عن حقيقتها؛ قوارب تركت لتواجه مصيرها في عرض البحر الذي تعبره قوارب السياح أو ناقلات البضائع التجارية بحرية، وأجساد مشوهة بعوامل الطقس تطفو قبالة قباطنة قوارب محظور عليهم إنقاذ الغرقى، وموت بطيء وطويل وقاس يوظف كوسيلة لردع غيرهم. من مشاريع المهاجرين. ات من خلال روايات الناجين. ات المفزعة أو لوسم الأجساد بختم سلطة الاستعمار الجديد بغية إقناعهم. بالعدول عن الانطلاق في مثل تلك الرحلات، وسعي لمعاينة الهجرة التي تضرب عرض الحائط بالتأثيرات، انتهاء إلى القمع المنهج من قبل الشرطة المحلية لكافة محاولات الناجين. ات للكشف عن الحقيقة. وينضاف إلى ذلك إثارة الشكوك داخل الأسر وخلق حالة من التجهيل المنهج (Agnotologie)<sup>5</sup> داخل المجتمع من خلال نشر "علم" يعزو الهجرة غير النظامية والموت الناجم عنها حصرا لعوامل اجتماعية تبرئ الحدود الاستعمارية الجديدة. إنها هندسة للتجهيل هدفها الحيلولة دون بلوغ الحقيقة بشأن ظروف الاختفاء ومحو البعد السياسي لعنف النظام الحدودي. وتبرز هذه العناصر في المسار الطويل الذي يحول الموتى إلى مفقودين. ات، أي إلى أشباح تراود الأحياء وتحول دون إقامة الحداد وتحبط أي مساع لمساءلة سياسات الهجرة.

## ■ غالي وصلاح: شهادات لصالح الموتى وتعبير عن التزام الناجين. ات بقضية الاختفاء

تفصح كلمات غالي التي وصفت اختفاء/ وفاة 41 مهاجرا مغربيا قبالة سواحل أغادير عن وعي عميق بمسألة الموت؛

4 أشيل مبيمبي، Nécropolitique (السياسة النكرووية)، مجلة 1، Raisons politiques، 2006، العدد 21، 2006، ص. 29، 60.

5 للاطلاع على علم التجهيل (L'agnotologie) الذي يدرس الجهل الناجم عن نشر بيانات علمية مضللة، انظر: روبرت ن. بروكتور Robert N. Proctor، المحرقة الذهبية: مؤامرة صناعة التبغ (Golden Holocaust : la conspiration des industriels du tabac)، باريس، منشورات Éditions des Quatreurs، 2014.

وهو ما يعكسه الفزع الذي خيم على شهادته والتضرع المتكرر لله ترخماً على أرواح مفقودين. ات يؤكد بيقين أنهم قد "ماتوا" جميعاً نظراً إلى أنه قد تقاسم معهم. ن تجربة رحلة العبور والكارثة التي لحقت بهم. ن. لقد أشار غالي صراحةً بأنهم ن شهداء/ شهيدات؛ ففكرهم. ن تلازمه الآن (حتى أنه أبدى دهشته عندما سألناه عما إذا كان قد نسبهم. ن)، فهو يتكرهم. ن على الرغم من القمع الذي تعرض له بعد إنقاذه والذي لم يؤثر بأي شكل من الأشكال على علاقته بالمفقودين. ات أو دعمه لأسرهم. ن. وإن عزمه على "كشف الحقيقة كاملة" للعائلات المكلومة حتى عندما ترفض قبول الحقيقة لهو يعكس التزاماً أخلاقياً كان قد ترسّخ في بوتقة الأحداث، خلافاً لما تعمد إليه الدولة من إثارة الشكوك وتغذيتها. كما أن استعداده لوضع ثقته بباحث (علم أنه ليس "شرطياً") يهدف إلى مساعدة العائلات لهو عائد بالأساس إلى حاجته إلى مساحة تتيح له إعادة صياغة المعنى الذي تكتسبه التجربة التي عاشها؛ بل هو بالأحرى التزام سياسي خاص وفردى بالكشف عن حقيقة من المحتمل أن تخفف منسوب معاناة عائلات المفقودين. ات بوصفها معاناة جماعية. ولا شك أن هذه الحقيقة تناقض منطق السلطات الرسمية، أي منطق الدولة الذي يتجاهل الحقيقة تفضيلاً لشكوك رسمية تثار حول ملاسبات الاختفاء.

لقد أفضت نجاه غالي من الموت المحقق ومعابته لمعاناة عدد كبير من المهاجرين. ات الذين رافقوه إلى خلق علاقة بينه والواقع والكلام تخطت مجرد الخوف من قمع الشرطة؛ فمثل هذه التجربة التي تضاهي في وطأتها أهوال الحروب الوحشية قد مكنته من أن يقدم شهادته حينما توافر له مكان آمن نسبياً، وذلك على الرغم من المخاطر. وانفجر هذا الشاب الناجي بالبكاء في وقت لاحق من المقابلة عندما تذكر اثنين من أصدقائه وجيرانه كانوا من بين أول من لقوا حتفهم عندما اندلع حريق المحرك وانشق هيكل القارب؛ فحدث قائلاً: "لم يطفوا بعد ذلك"، وأجهش في نحيب بصوت مكتوم.

وافق غالي على مقابلتنا استجابةً لطلب أخت المهاجرة المفقودة/المتوفاة على الرغم من تردده في البداية. وروادني في نهاية المقابلة ذلك الشعور الغامض الذي لطالما لازمني كلما تحدثت مع ناجين. ات من رحلة عبور مميتة، حيث نبقى مع انطباع بأننا شاركنا في لحظة تأمل، لا مجرد مقابلة، أمام استعدادهم. ن لسرد تفاصيل الرحلة، لتكون بذلك لحظة معلقة يستعيد خلالها الناجون. ات ذكريات مؤلمة عن المفقودين. ات. وتستحيل هذه اللحظة لدى الباحث مساحة عابرة لإعادة دمج الموتى في سردية جديدة بإزاء قسوة وفظاظة كلمة "مفقودة." والجدل المحتدم بين العائلات والدولة حول مسألة "الاختفاء." وتتسا أهمية مثل هذا الفضاء بعد الوقفة التأملية نفسها؛ فما إن تحيي ذكرى الموتى ويذكر بأسماءهم. ن والحزن عليهم. ن، فإنه يصبح من واجب الناجين. ات فضح الواقع المفضي إلى هذه الوفيات؛ أي واقع الحظر المفروض على اجتياز الحدود نحو الضفة الأخرى والبؤس الموصوف في بلد المغادرة، فضلاً عن فضح الفظائع التي ترتب لتؤدي إلى موت يشهد عليه قباطنة سفن تنقل بضائع "العالم المعولم" وهم. ن مكتوفو. ات الأيدي.

يدرك الناجون. ات تمام الإدراك أن عائلات المفقودين. ات تمثل مواضيع محرمة وتابوهات يجب تجنبها إذا ما أرادوا الحفاظ على هامش أمان من الضغوطات التي تمارسها الشرطة والسلطات القضائية. إن دعم هذه العائلات يعني المشاركة في حملات التعبئة من أجل الحق في الحياة والحقيقة والعدالة، وهي حملات تدعو صراحةً إلى تحديد مسؤولية الدولة عن الوفيات وحالات الاختفاء على الحدود. ولأنهم. ن نجوا من الموت، فإنهم. ن يواجهون موقفاً متناقضاً؛ فالنجاه تعرضهم. ن للخطر من جهة، ومن جهة أخرى فإن عودتهم. ن أحياء تضعهم. ن في مواجهة محتملة مع القضاء في بلدانهم. ن (الأصلية) بالمغرب والجزائر (التي ترجم الهجرة السرية بنحريض من أوروبا العائدة إلى تصدير جدودها. وهكذا يقع على عاتق كل ناجية عبء إثبات براءته. ها من التهم القانونية الموجهة إليه. ها باعتباره. ها مهرياًة أو قبطاناً هارياً أو منظماً لـ"رحلات الحرقة" وعمليات الأتجار بالبشر. ويتناقض هذا الوضع متى نجم عن تلك الرحلات وفيات أو حالات اختفاء؛ حيث يخضع الناجون. ات عند اعتقالهم. ن من قبل سلطات بلد المغادرة (أي المغرب والجزائر وتونس في هذه الحالة) للمحاكمة ولتحقيقات أمنية مطولة وللمراقبة الإدارية القضائية في بعض الحالات، كما يحجر عليهم. ن لقاء العائلات المكلومة التي فقدت أبناءها/بناتها. وينضاف هذا القمع إلى الصدمة النفسية الناجمة عن تجربة الاقتراب من الموت غرقاً وفقدان الأصدقاء أو الأقارب والضغط الناتج عن تكبدهم. ن وجيدين. ات عبء ذكرى الحدث المكتوم والمصير للنسيان من قبل سلطات محلية وأوروبية تعامل موت المهاجرين. ات وكأنه حدث عابر بلا أهمية تذكر. ويقبع بعض الناجين. ات بالسجون، في ما يجابه البعض الآخر نظرات الشك أو التوسل التي تطلقها عائلات فقدت ذويها.

يروي صلاح، وهو مغربي نجا من حادث غرق قارب قبالة سواحل مدينة طانطان بالمغرب كيف استوعب تدريجياً العبء العاطفي والاجتماعي الذي يتقل كاهل الناجين.يات:

“دأبت على زيارة العائلات خلال الأعياد الدينية في السنوات الأولى التي لحقت اختفاء بعض الأصدقاء عند غرق القارب الذين كُنَّا على متنه في العام 2016. لقد كنت أعتقد أنني أحسن صنعاً. بيد أنني أدركت لاحقاً أنني ما كنت إلا أستهير آلامهم. ولعل من الأفضل لهذه العائلات أن تظل على اعتبارهم من مفقودين.ات، وألا تفقد الأمل [...] بدلاً من زيارتهم لتذكيرهم بأنهم ن غرقوا وأنني كنت أحد الناجين القلائل. وصرت منذ أن أدركت ذلك أتجنب اللقاء بهم، حتى أنني كنت أعبر إلى الجانب المعاكس من الشارع عندما أصادف أحد أفراد تلك العائلات. فمراي يذكُرهم بأبنائهم، ولذلك وقع أليم على نفوسهم وعليّ كذلك، لأنني ما نسيت قط.”<sup>6</sup>

لا زال صلاح يطمح للذهاب إلى أوروبا حتى بعد مرور سنين منذ العام 2016؛ إذ تقدّم بطلبين للحصول على تأشيرة اللقنصلية الفرنسية والإسبانية تباعاً، ولكن رفض كلا الطلبين. وكشف صلاح في نهاية المقابلة عن السبب الكامن وراء ذلك، والمرتبب بالصدمة الناجمة عن عملية الإنقاذ التي دفعته إلى الإقدام على الهجرة إلى أوروبا مرة أخرى:

“ما من شيء يعينني على نسيان هؤلاء الموتى هنا في المغرب، إذ لم يفارق المغاربة الستة الذين غرقوا قبل أن يأتي البجارة لإنقاذنا ذاكرتي قط. وأريد الرّحيل لعلني أظفر بنعمة النسيان.”<sup>7</sup>

## فرز عن طريق الموت في الجنوب، وسيطرة عن طريق الإيذاء والاعتقال والترحيل في الشمال

تكتسي الدراسة الاستقصائية التي أجرتها كلوي ألين (Chloé Allen) حول الطرق الجبلية وغابة كاليه في فرنسا أهمية بالغة في سياق نظام حدودي يهيكل وينظم فيه العنف من خلال اعتماد نظام تأشيرات قاتم ومرّوع؛ حيث تشرح الدراسة المذكورة الكيفية التي تخلق بها منظومة الحدود الأوروبية مساحات يكون فيها التعرض للأذى والموت جزءاً لا يتجزأ من طرق إدارة ملف الهجرة<sup>8</sup> من خلال الدمج بين إجراءات قانونية وأمنية وأخرى ذات صلة بالبنية التحتية. كما تفصح توصيفاتها الإثنوغرافية سياسة

6 مقابلة أجريت في مدينة سلا بالمغرب في شهر ماي 2024 مع صلاح (البالغ من العمر 35 عاماً)، وهو أحد الناجين من رحلة عبور للمحيط الأطلسي باتجاه جزر الكناري الإسبانية. التقيت بصلاح في مسقط رأسي بفضل صديق طفولة يعلم أنني أجري بحثاً حول هذه الرحلات. يعيش صلاح على مقربة من منزل العائلة. تولى مناصر ساخي إجراء هذه المقابلة.

7 مقابلة أجريت مع صلاح بمدينة سلا في ماي 2024.

8 كلوي ألين، «إلغاء الحدود: دراسة إثنوغرافية للسياسة التكرورية في مجال اللجوء وأشكال المقاومة اليومية والعنف العنصري التبوليبرالي في المناطق الجبلية على الحدود الفرنسية الإيطالية بإقليم الألب العليا (Abolir les frontières. Une ethnographie de la néropolitique de l'asile, des résistances)». *Journal of Ethnic and Migration Studies*, 2023. <https://doi.org/10.1080/13621687.2023.2251111>.  
أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية والاجتماعية (قسم الأنثروبولوجيا) بجامعة لوفان الكاثوليكية تمت مناقشتها في 16 أكتوبر 2025.

حدودية تخفي طبيعتها العنيفة وراء دقة التعقيدات القانونية وتقنيات المراقبة وتمييع المسؤولية الأمنية. وتضيء هذه الدراسة الاستقصائية كذلك أشكال المقاومة التي تنشأ صلب هذه المنظومة؛ حيث تبرز التحالفات المحلية وجهود التضامن الملموسة بين المهاجرين.ات والداعمين.ات والناشطين.ات والسكان المحليين. ويعدُّ هذا التّشخيص محوريًا في سياق فهم تدخّل مناهج القمع، إذ يتيح فهمًا للعنف الحدودي بوصفه أسلوبًا إداريًا وعقلانية بيروقراطية تُوزع الموت بطرق متباينة، بدلًا عن تمثله كسياسة معزولة لا تتبناها سوى أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا. وتظهر الدراسة الاستقصائية التي أجرتها كلوي ألين في الفضاء الأوروبي وجود مستوى يكاد يكون إجرائيًا ويشكل امتدادًا لمستويات أخرى لنظام عام يتخذ من جنوب أوروبا وتخومها منطلقًا له. وتمعن الحجج القانونية المتمثلة أساسًا في ادعاءات "حفظ الأمن والنظام العام" في التهاوي كلما ابتعدنا عن العواصم التي تُصاغ فيها هذه السياسات القاتلة، ليظهر الموت في شكله الحقيقي؛ موت جماعي واختفاءات وسط حالة من اللامبالاة.

لا تتعدّى جبال الألب كونها حاجزًا أخيرًا أو مرشحًا يفرز الناجين.ات من طرق الجنوب العالمي بالنسبة للمهاجرين.ات الذين يقصدون بلدًا معينًا في أوروبا دون غيره. وتمتدّ هذه الحدود المُصمّمة منهجيًا لتكون قاتلة إلى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي والصحراء الكبرى وطرق تركيا وصولًا للغابات الجليدية في البلقان، وإنما تصدر أوروبا الموت حيثما تعتمد إلى تصدير حدودها، ليتضاءل بذلك الوضوح وتتناقص الحقوق، في مقابل ارتفاع حالات الاختفاء دون أثر ودون أن يعقبها اتخاذ إجراءات للبحث عن الحقيقة.

وتتكشّف تجارب المهاجرين.ات المغاربة والتونسيين.ات الذين نلتقي بهم.ن في هذه المناطق تحديدًا؛ حيث تزخر قصصهم.ن بتفاصيل قد تعتبر من منظور سوسيوولوجي صارم خيالية أو ذات طرافة جذابة من الناحية السردية. إلا أن ذلك من شأنه الإغفال عن جوهرها؛ فهي قصص مغرقة في الموت والاختفاء والجثامين المتحللة على الرمال أو تلك التي تتقاذفها الأمواج، إضافة لاضطرابات ما بعد الصدمة والشعور بالإذلال. ويكمن رهان منهج الكتابة الإثنوغرافية في العدول عن غض الطرف، في مقابل اعتماد التّوصيف والنقل دون استيعاب المعاناة في صياغاتها.

يقصّ المهاجرون.ات طبيعة الحال حكايات عن حياتهم.ن السابقة وآلامهم.ن وطموحاتهم.ن كأحلامهم.ن في أن يصبحوا لاعبي.ات كرة قدم في أوروبا وبعض الذكريات القليلة المبهجة على طرق الهجرة والصدقات التي تمت بينهم.ن وعملهم.ن في مهن متواضعة في بلادهم.ن. كما يخبرون عن التي دفعت بهم.ن للرحيل من قبيل الخصاصة وتراكم الديون والعقبات الاجتماعية والبطالة والأجور غير اللائقة. ولكن سرعان ما ترتدّ رواياتهم.ن إلى جوهر المشكل المتمثل في أوروبا تفرض عليهم.ن سياسة عمادها طرق محصنة عسكريًا تعرّضهم.ن لخطر ميته مأساوية. وتكرّر هذه الروايات لا سيما ضمن شهادات الناجين.يات من رحلات العبور المليئة بالعنف<sup>9</sup> بوصفهم شهودًا على ممارسات منغذية هذه السياسة المتسلحين بأزياء رسمية ومركبات مدرّعة وشاحنات وبوارج وأسلاك شائكة وتكتيكات الاشتباك والأسلحة والكلاب البوليسية والأضواء الكاشفة. كما يميّز المهاجرون.ات الشاحنات التي تنذر بعمليات الترحيل الجماعي وتشكيلات القوات الأمنية في البلقان التي تمارس عليهم.ن الاعتداء بالضرب ومحركات الزوارق المطاطية التي تنذر بتعرّضهم.ن لخطر الموت. إن إنهم.ن لم يكتسبوا.ن مثل قدرتهم.ن على التمييز تلك من تكوين أكاديمي، بل هم.ن راكمون.ن جملة تلك المعارف بعد قضاء ساعات على قنوات يوتيوب يتقفون خلالها آثار ناجين.ات آخرين بغية تهيئة أنفسهم.ن لرحلة العبور؛ ولذا فإنّ هذه المعارف لها مستلخصة من التجربة ونتائج القمع المتواصل. كما أنّها ناشئة عن التجارب بفعل تكرار المحاولات وقلة فرص العمل ونقص الغذاء والاستغلال المُجابِه في بلدان العبور، وإخفاق رحلات العبور والحياة في المخيمات والعلاقات والصّلات الزائلة وتضامن غير موصول.

ويتخذ مسار رحلة فايز الآتي ذكره من جغرافيا الموت المنظّم هذه مسرحًا له، حيث تجسّد تجربته نموذجًا صارخًا لهذه المعرفة الموضوعية؛ وهي معرفة لا تثبّط الرغبة في الرحيل بل تعيد توجيهها، كما أنّها لا تلغي الرغبة في الهجرة، بل تعقلنها وفقًا



## لشروط البقاء .

المسار الذي سنتناوله في بقية هذا الفصل هو مسار رحلة شاب مغربي (سنسميه فايز) يبلغ من العمر عشرين عامًا، وهو مثال على الإمام بطرق السفر المحظورة. وكنا قد التقينا بفايز في مطار تونس قرطاج الدولي<sup>10</sup> في مساء يوم من شهر فبراير 2024، أي قبل بضعة أشهر من فرض الجزائر تأشيرة دخول على المواطنين المغاربة (في شتبر 2024). وقد سافر فايز برفقة ثلاثة شبان آخرين جميعهم أصيلو مدينة فاس بالمغرب، وهم من المهاجرين المغاربة الذين بات يتعين عليهم الآن الالتفاف حول النقاط الحدودية المسلحة بين شمال المغرب وإقليم الأندلس لبلوغ جنوب إسبانيا؛ وبذلك يستهل مسار رحلتهم بسفرة جوية من الدار البيضاء إلى تونس ومنها إلى الجزائر حيث يستقلون حافلة إلى مدينة وهران قبل الانطلاق على الطريق المحظور إلى إسبانيا. كما صار عليهم قطع مسافة تقارب 120 كيلومترًا بحرا تفصل بين السواحل الجزائرية والساحل الإسباني، في حين لم تتجاوز المسافة المقطوعة سابقًا بين طنجة و مدينة طريف الإسبانية الـ 14 كيلومترًا. ولم تؤد بذلك العسكرة إلى إغلاق الطريق، بل أطالت المسافة وحولت مسار رحلة تعاضمت خطورتها لتصبح أكثر فتكًا.

أمضى هؤلاء الرجال الأربعة ليلتهم الثانية على المقاعد في منطقة التسجيل بالمطار، حيث سادت أجواء ودية بينهم وبين عناصر الشرطة التونسيين؛ أجواء من الهدوء الهش تخللتها حالة من الريبة الدائمة. عناصر الشرطة على علم تامً بهويتهم، إذ اعتاد شبان مغاربة آخرون المرور عبر نفس الممر أسبوعيًا قبيل الاختفاء في غياهب الطرق السرية بالجزائر. ويقصد الشباب الأربعة مكاتب الشرطة في المطار متى احتاجوا شحن بطاريات هواتفهم، ليشاركوا أعوان الأمن ما كانوا يحملونه من أطعمة ومرطبات مغربية أعدوها بعناية لسد الرمق أثناء الرحلة. وحديثي رضا صديق فايز قائلاً:

”لا تعلم ما ينتظرك عند التعامل مع عناصر الأمن التونسية، وفي ذلك شبهة بالتعامل مع قوات الأمن في المغرب.“ ثم يواصل القول: ”يتحتم علينا أن نظل متيقظين وكرماء معطائين؛ ولئن دأب بعض عناصر الأمن التونسي على مساعدتنا طيلة يومين دون طلب مقابل، فإن البعض الآخر هددنا بالاعتقال أو طردنا إلى العراء في البرد القارس“. ويبرز بذلك هذا التقلب الدائم بين المساعدة والتهديد كإحدى السمات الجوهرية للحدود المحظورة في بلدان المغرب الكبير.

عرفني على هؤلاء الشباب الأربعة شقيق لمغربي فُقد قبالة سواحل ولاية صفاقس التونسية؛ وقد تبين أنه من بين من غرقوا في العام 2021، ولم يُعثَر على جثته قط كحال الكثيرين من بين اثنين وثلاثين شاباً غادروا الدار البيضاء في ذلك العام. وقد تمكنت أمّان من التعرف على جثث أبنائهما بعد أسابيع من التيه بين المشارح والإدارات، لتعيدا جثامينهما إلى الوطن لإكرامهما بمراسم دفن لائقة. قال لي شقيق الشاب المفقود المذكور سابقاً بعد علمه بوجودي في تونس وعلمي عن قرب مع مصالحي الطب الشرعي (والفضل في ذلك عائد لوائل القرناوي): ”هم (الشباب الأربعة) موجودون بالمطار الليلة. سوف يتحدثون إليك إذا ما ذهبت للقائهم“. وتقلت إلى المطار حيث اضطررت إلى التفاوض مع أعوان الشرطة لبضع دقائق، فوافقوا على السماح لي بالدخول ذلك أني لم أملك تذكرة طيران. لقيت الشباب الأربعة الذين كانوا جيراناً في نفس الحي من مدينة فاس بالمغرب وهم على وشك الصعود إلى الطائرة المتجهة إلى الجزائر ثم وهران؛ فكانوا بذلك سائرين على درب من فقدوا في صفاقس. ولكن سيمسك الشباب المذكورون طريق آخر هذه المرة؛ إذ لم يعد العبور إلى جزيرة لامبيدوزا الإيطالية انطلاقاً من السواحل التونسية ممكناً، بل فتح طريق أطول يمر عبر الجزائر يأملون بسلوكة بلوغ ساحل ألميريا الإسبانية.

واستعرضنا بداية مع فايز الأحداث التي سبقت مشروعه في الهجرة إلى إسبانيا، فما لبث أن أتضح أن دافعه في اختيار هذا الطريق لم يكن سهولة دخول الأراضي الجزائرية كمرحلة أولى في مسار رحلته إلى إسبانيا، بل أن السبب عائد للصعوبات التي واجهها والعنف والإذلال الذي تعرض له خلال محاولته العبور عبر البلقان قبل عام. وأخبرني فايز في مستهل المقابلة بصوت طبعه هدوء فاتر: ”أن ألقى حتفي بين فكي سمكة قرش تلتهمني خير لي من أن أموت متأثراً بجروح في مخيم في غابات البلقان“. لقد دفعت الجبال والأنهار الجليدية وليالي البرد القارس في غابات كرواتيا وصربيا وسلوفاكيا و”العنصرية في تركيا“ وإجراءات الترحيل المتكررة وفقدان أصدقاء ترحلوا على طول الطريق والعنف في المخيمات والجوع والعطش بفايز إلى البحث عن طريق آخر يوصله لأوروبا، طريق وإن كان أكثر تكلفة إلا أنه أسرع ويفترض أنه أكثر ”أماناً“. ويخبرنا مسار رحلة فايز باستفاضة عن المعارف الدقيقة التي يكتسبها المهاجرون. ات عن الطرق المحظورة. بيد أنها معارف لا تكبح رغبتهم في المغادرة، بل إنها تحفز في الناجين. ات من الموت إصراراً وتعتناً مُعلنًا.

## تحدّي وإبستيمولوجيا الطرق المحظورة

منتصر: كيف نشأت لديك فكرة الرحيل؟ وما رأي عائلتك في هذا القرار؟

فايز: لم تروادني (أنا وأخي) فكرة "الحرقة" (الهجرة السريّة) من قبل. ولكن يسّر الله طريق صديقين من حيننا كانا قد غادرا إلى أوروبا عبر تركيا ووصلا إيطاليا في مطلع العام 2023. وقد تواصلت معهم رفقة أربعة أصدقاء آخرين كي يرشدونا إلى الخطوات التي اتبعوها في رحلتهم؛ ففسّروا لنا مسار الرحلة والطريق الذي سلكوه. وعدت عندئذ إلى المنزل وأبلغت أمي برغبتي في الرحيل.

منتصر: هل استفسرتم منهم عمّا إذا كانوا قد حصلوا على وضع إقامة قانونية (تصريح الإقامة القانونية)؟

فايز: كلّ ما نعلمه أنّ وضعهم قد صار أفضل وأنهم يعملون، وأنهم يعيشون حياة أفضل من التي كانوا يعيشونها في المغرب [...] لذا قصدت أمي طلبا لمساعدتها حتى أتمكن من السفر إلى تركيا؛ تشاجرنا عندئذ، إذ رددت أنها لا تريدني أن أعاني. ولكنها سلمت بالأمر في نهاية المطاف ومكنتني من 4000 درهم مغربي (ما يعادل 400 يورو) لاقتناء تذكرة طيران. وسافرت بعد عيد الفطر مباشرة في 2 ماي 2023 رفقة صديقين آخرين. لقد مثلت تلك محاولتي الأولى، تلتها محاولة ثانية باءت كلاهما بالفشل. واعتقل أحد أصدقائي وحُكم عليه في تركيا بالسجن لمدة عام لعدم امتلاكه جواز سفر، وهو يقبع بالسجن الآن إذ لا يزال عليه قضاء بضعة أشهر أخرى في إطار فترة عقوبته. أسأل الله أن يفك أسرهم. أما عني فقد قضيت بضعة أشهر في تركيا عملت خلالها حتى أتمكن من شراء تذكرة العودة. لقد طرقت باب أوروبا خمس مرات ("ضربت خمسة ضربات") لكن الله لم يأذن لي بالنجاح في ذلك؛ اختبأت في محاولتي الأولى لاجتياز الحدود تحت مقطورة شاحنة نقل ثقيلة، ولكن كشفت أمري الشرطة على الحدود البلغارية. واعتقلني حرس الحدود أثناء عبوري نهراً في سلوفينيا في محاولتي الثانية، وكانوا سيعيدونني إلى نقطة البداية لو لم يخل سبيلي جندي توسّلته أن يتركني عند الحدود الأخيرة بدلاً من احتجازي لترحيلي نهائياً من أوروبا. كانت تلك أوّل مصافحة لي مع أوروبا عايشة خلالها الأحوال في المخيمات بصربيا وكرواتيا وسلوفينيا، حيث كنا ندرّب باستخدام أكياس بلاستيكية ننفخها هواءً للتعامل مع هجوم محتمل للدببة؛ وذلك من حسن حظنا، إذ وقفنا وجهاً لوجه مع ثلاثة دببة بعد يومين. لم تهاجمنا الدببة رغم أن ذلك كان وارداً، وهو ما جعلنا نسير حاملين الأكياس البلاستيكية التي توجب نفخها وفرقتها لإخافة الدببة إذا ما هجمت. وأتذكر أنني كنت خائفاً وبني ريبة من فاعلية تلك الخطة. كانت درجات الحرارة متجمّدة حتى أنني ظننت أن سأجمّد وأموت برداً في الغابة قبل بلوغ سلوفينيا. كما شهدت على توقف

البعض عن المشي والنأي بأنفسهم عن المجموعة، ولا علم لي إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة. وأوقفنا حرس الحدود للمرة الثانية، فجردونا من ملابسنا وأتلفوا هواتفنا وأجبرونا بالهراوات على السباحة لعبور النهر الذي مثل نقطة حدودية. جرت مياه النهر في تيار عنيف [صمت] سحب أحد أفراد المجموعة، ولم نعثر له على أثر بعد ذلك رغم سؤالنا في المخيمات الأخرى في بلغاريا. لقد شهدت الموت على هذا الطريق [...]

عدت بعد ذلك إلى المغرب حيث قضيت ثمانية أشهر عاطلاً عن العمل قبل أن تتاح لي بعض فرص العمل غير الرسمي. وحصلت على رخصة القيادة قبل أن أعود إلى تركيا وأحاول عبثاً العبور إلى أوروبا مرة أخرى. وعدت مرة أخرى إلى المغرب حيث حصلت على فرصة عمل متواضعة بمدينة الناظور الساحلية مكنتني من من ادخار بعض المال للانضمام إلى أصدقائي. لقد غادر قريب لي للجزائر منذ أسبوعين، وعلمت لاحقاً أنه وصل إلى إسبانيا، فدعوت الله أن يبسر له الأمر. وعاثت بذلك فكرة الرحيل لتتمكني. والداي... [صمت] خالج والدي المسكين إحساس بفكرة الرحيل التي عادت لتتشغل تفكيري، رغم أنهما لم يفاتحاني بالموضوع. ثم قالوا لي: "تبدو لنا مغموراً بالحزن، إذ أنك تريد المغادرة. بإمكانك المغادرة إذا ما أردت، ونحن مستعدون لمساعدتك". هما يعلمان في قرارة نفسيهما أنني شاب صالح وذو خلق حسن لم يعرف للسجن طريقاً، وأن عيبي الوحيد أنني لم أوفق في دراستي. وها أنا الآن هنا في هذا المطار. رجاء أن تدعو الله لنا ألا يتعطل المحرك في عرض البحر.

**منتصر:** اللهم آمين. أسأل الله أن يبسر رحلتكم [...] ألم تحاول العبور إلى مليلية انطلاقاً من مدينة الناظور؟

**فايز:** بلى، إذ لم أسافر لمدينة الناظور إلا للعمل ولكي "أحرق". بيد أنني سرعان ما أدركت أن الأسلاك الشائكة والسياج الحديدي في مليلية يخضعان لمراقبة شديدة، وأن العنف سائد للغاية. وكان لزاماً على المرء أن يشابه باقي الذين يحاولون العبور إذا ما أراد النجاح في ذلك؛ إذ يجب أن تصير شمكاراً يقاسم هؤلاء نفس نمط الحياة (ملاحظة المترجم: لفظ شمكار هو لفظ مغربي دارج يصف المدمن على المواد المتطايرة والمستنشقات). لقد رفضت أن أكون مثلهم، فعملت في موقع بناء لفترة من الزمن ثم عدت إلى فاس.

**منتصر:** أبواب مدينتي سبتة ومليلية موصدة تماماً. هل تعين عليك الذهاب إلى وهران عبر تونس؟

**فايز:** أجل، الأبواب موصدة تماماً في وجوهنا نحن المغاربة. ولئن كان بإمكان القادمين.ات من جنوب الصحراء الكبرى وللتونسيين.ات والجزائريين.ات المحاولة، إلا أن الأمر أصعب بالنسبة لنا نحن المغاربة. الشخص الموجود هناك [مشيراً إلى أحد الركاب في غرفة الانتظار] جزائري الجنسية، وهو سيغادر نحو الدار البيضاء قبل أن يقصد سبتة. [يشير إليّ بابتسامة واثقة] ما سبب



ذلك برأيك؟ إنَّ ذلك عائدٌ "للعنف وسوء المعاملة"؛ حيث تسلَّطت قوات الأمن المغربية عنفاً شديداً على المغاربة حين اعتقالهم، إذ أنَّ حرقَةَ المغاربة محظورة في المغرب ولذلك يُطارَد ونُضرب ضرباً مبرحاً إذا ما قبضَ علينا. ولذا نجد أنفسنا مضطرينَّ للانتقال خارج المغرب اتقاءً لسوء معاملة قوات الأمن المغربية. وفي المقابل لا يُسمحُ للشرطة المغربية سوى باحتجاز أو ترحيل حاملي.ات الجنسيات الأخرى دون ضربهم، وذلك الحال في تونس والجزائر أيضاً. ولا يقتصر العنف على مجرد الضرب بالهراوات وإخلاء السبيل إثر ذلك، بل إنَّ الأمر أفدح من ذلك بكثير؛ فالشرطة المغربية تسعى إلى التسبب بالشلل وإلحاق مثل ذلك الأذى الذي يحول دون القدرة على التحرك إلى الأبد عن طريق كسر العظام أو تهشيم الصلوع. كما نهدف من الحرقَة من خارج المغرب لتجنيب عائلاتنا مضايقات الشرطة؛ حيث تخاف العائلات من تبعات الضرب والاعتداء الجسدي، وتقلق من

اضطرابها إلى التنقل بين مراكز الشرطة والمحاكم والسجون إذا ما قبض علينا. تدفعني هذه الأسباب إلى المغادرة للجزائر، كما تدفع نفس الأسباب بالجزائريين. ات إلى الذهاب للمغرب. لقد حاولت لمرتين العبور نحو أوروبا عبر المغرب، فأدركت عندئذ مقدار الصعوبات. رجاء أن تدعو الله لنا أن يوفقنا في العبور من الجزائر.

**منتصر: [...] وكيف تجرى الأمور في الجزائر؟**

**فايز:** تتطلق الرحلة من وهران نحو ألبانيا إما على متن "السريع" (ملاحظة المترجم: "السريع" هو قارب ذو سرعة هائلة كما توحى بذلك تسميته المحلية في الجزائر، وهو خيار باهظ الثمن يميل له الحرافة لسرعته تلك وإمكانه إتمام رحلة العبور بغض النظر عن أحوال الطقس) أو على متن قارب بمحرك متوسط السرعة، وهو خيار أقل تكلفة. إن ما يميز الجزائر أجواء الثقة التي تسود؛ إذ لنا معرفة بأشخاص موثوقين يقومون بترتيب هذه الرحلات، رغم إنتشار عمليات التحيل. فمثلاً لن أذفع مقابل الرحلة إلا بعد وصولي إلى إسبانيا. وسنستقل بعد وصولنا الجزائر العاصمة سيارة أجرة توصلنا لمدينة وهران التي تبعد 400 كيلومتر لقاء حوالي الـ 20 يورو.

**منتصر:** كم يكلف السفر من وهران إلى إسبانيا؟ يعني كم تدفعون مقابلاً لرحلة العبور تلك؟

**فايز:** تكلف الرحلة 8.5 مليون سنتيم (8500 يورو)، ولكنني لن أحمل معي هذا المبلغ أثناء الرحلة. وتجري الأمور بأن يعمل لدى المسؤول عن العملية في وهران أحد الأشخاص في مدينة وجدة، وهو من سأطلب من أمي تسليمه الأموال فور وصولي إلى إسبانيا؛ حيث يُناول قائد القارب المهاجرين. ات هاتفه عند الوصول حتى يتمكنوا من الاتصال بأسرهم. لن لدفع ثمن الرحلة، وسوف لن يسمح بالترجل من القارب ما لم يتم تأكيد الدفع.

وتتضاف إلى مبلغ 8500 يورو المذكور تكاليف تذاكر الطيران إلى تونس ثم إلى الجزائر. لقد تكبدت خسارة 3500 يورو في تركيا.

**منتصر:** أي نوع من القوارب ستركبون في وهران؟ هل سيكون قارباً خشبياً؟

**فايز:** كلاً، فأنا سأعبر على متن "السريع" بمحرك ذي قوة 300 حصان. وتختلف تكلفة رحلة العبور، حيث يدفع من سيسقلون الزوارق المطاطية مبالغ أقل في مقابل مخاطر أكبر. وهناك من يدفع 4000 يورو، بينما يدفع آخرون 3000 يورو وآخرون 2000 يورو. ولا بد للمرء أن يطلع على المحرك مسبقاً وأن يكون ملماً بأنواع المحركات؛ فأنا مثلاً لن أركب أبداً قارباً قوة محركه 15 أو 100 حصان. ويمكنني عندئذ الاتصال بالشخص الذي يتولى استلام الأموال من أمي وتحويلها للوسيط الجزائري وأعلمه بضعف المحرك الذي لا يتناسب والمقابل المطلوب؛ إذ كنت قد اتفقت في الأصل مع المهرب على ركوب قارب قوة محركه 300 حصان، ولذا فلن أرضى بقارب آخر. وقد ركب قربي مثل هذا القارب ذي المحرك بسعة 300 حصان، ووصل إلى إسبانيا؛ وهو موجود

الآن في برشلونة بمركز لاستقبال المهاجرين.ات غير النظاميين.ات الفَصْر (لكونه قاصراً). أَدعو الله أن ييسر الأمر للجميع.

**منتصر:** هل لديك معلومات عن القارب وعن الطريق الذي تعترق قطعه؟

**فايز:** تبلغ المسافة 120 كيلومتراً، وسيستغرق المحرك بقوة 300 حصان ما بين ساعتين و12 دقيقة إلى ساعتين و20 دقيقة للوصول إلى وجهته. وسأتحقق من ذلك قبل الصعود على متن ذلك القارب.

**منتصر:** كم عدد الأشخاص الذين سيكونون على متن القارب؟

**فايز:** سيحمل القارب ما بين 18 و20 مهاجرة، فهو قارب كبير. وتستغرق رحلة عبور بعض القوارب يوماً بأكمله. ويرتفع عدد هذه الرحلات نظراً للنزاع الدبلوماسي بين الجزائر وإسبانيا؛ حيث أخبرني قريبي المذكور سابقاً بأن البحرية الجزائرية كانت حاضرة وتراقبهم عند مغادرتهم. ن دون أن نتدخل، وتلك حدود علمي بالموضوع. هذه هي المرة الأولى التي أزر فيها الجزائر، وآمل أن يسمحوا لنا بالعبور غداً.

**منتصر:** هل يدفع المغاربة والجزائريين.ات وغيرهم.ن من الجنسيات الأخرى وفق نفس التسعيرة؟

**فايز:** كلاً، فالمغاربة يدفعون ثمناً أعلى، ولا توجد جنسيات أخرى من أفريقيا جنوب الصحراء؛ فجل المهاجرين.ات من السوربيون.ات والمغاربة لأن الأراضي الجزائرية محظورة على السود من جنوب الصحراء، ولا أعلم سبب ذلك. ولئن كان ثمن رحلة العبور أرخص بالنسبة للجزائريين.ات، فإننا نحن المغاربة مجبرون على دفع مبلغ يزيد بمقدار 15,000 درهم (أي ما يعادل الـ1500 يورو). لقد عمد قريبي إلى التظاهر بأنه جزائري حتى لا يضطرّ لدفع المبلغ الزائد، إلا أن المسؤول عن الرحلة طفق يستجوبه بأسئلة عن الجزائر وحكومتها ومناطقها عجز عن الإجابة عنها؛ فأخبره أنّ عليه دفع مبلغ الـ15,000 درهم الإضافية إذا ما أراد السفر. كما باءت محاولاته في التوسل إليه واستجداء عاطفته بالفشل. أنا لم أستوعب سبب انعدام المساواة ذلك؛ إذ من المفترض أن تكون الأسعار متساوية. فلماذا يرفعون الأسعار إلى هذا الحد بالنسبة لنا نحن المغاربة، خصوصاً وأننا نتكبد مصاريف أخرى؟ ليست الجزائر وجهة سياحية شهيرة، وإن معظم السياح الذين يزورونها هم من الحرفيين.ات، وهو ما يعني أنهم.ن من أصحاب المهارات اليدوية وبالتالي من أصحاب الأموال.

**منتصر:** كيف حال عائلتك الآن؟ هل تتابع والدتك تطورات الوضع؟

**فايز:** يجافي أمي النوم فهي جد متوترة ("قابضة على قلبها") رغم أنني دوماً ما أخبرها الحقيقة حول ازدياد صعوبة الدخول إلى الجزائر وكيف أنني معرض لاحتمال الاعتقال هناك. وها أنت الآن

شاهد على وضعنا؛ إذ ليس لدينا مكان لننام فيه، وهذه هي الليلة الثانية التي نقضيها في مطار تونس قرطاج الدولي رغم أننا كنا قد حجزنا غرفا في فندق بتونس العاصمة ودفعنا ثمنها. فحجز الإقامة في الفندق يتيح لنا وضع إقامة قانونية سليمة عند تعاملنا مع الشرطة التونسية.

**منتصر:** ولما لا تتزلون بالغرف التي حجزتموها بالفندق؟

**فايز:** لإننا لا نعرف تونس العاصمة، ولأننا نخشى أن تعتقلنا الشرطة التونسية. ولذا فإن من الأفضل أن نبقى هنا (بالمطار).

**منتصر:** كم كلفتكم تذاكر الطيران؟

**فايز:** كلفتنا تذاكر الطيران من الدار البيضاء إلى تونس ومنها إلى الجزائر 5500 درهم (أي ما يعادل 550 يورو). كما يضاف إلى ذلك كلفة حجز ليلتين في الفندق بتونس العاصمة وفي الجزائر، ناهيك عن تكلفة التنقل بين مدن فاس والدار البيضاء وبين الجزائر العاصمة وهران. لقد اشترينا تذاكر عودة لن نستخدمها سوى كدليل عن النية في العودة نقدمه للشرطة.

**منتصر:** لماذا اخترت السفر انطلاقاً من الجزائر بدلاً من الطريق عبر تركيا؟

**فايز:** الطريق عبر تركيا ودول الشرق الأخرى عسيرة للغاية ويسودها العنف الشديد. ولذا فأنا لا أنصح المغاربة وجميع المهاجرين. أت بآن يسلكوا. هذه الطريق. لقد عايشت أنا ورفاقي تجارب مريرة على دروبها؛ إذ ينتشر فيها الموت من جراء الجوع أو البرد أو بالتقاط الأمراض نتيجة لشرب مياه الأنهار. كما تسود في تركيا العنصرية، على عكس الجزائر حيث يحسنون المعاملة. لقد بصق علي الكثير من العنصريين مرات عديدة في تركيا، لعنة الله عليهم. كما أنهم احتالوا علي في الأسعار لمجرد علمهم بأنني مهاجر؛ حيث أتذكر أنهم باعوني ذات مرة قارورة ماء بـ 50 ليرة تركية، في حين أن ثمنها الحقيقي لا يتجاوز الـ 20 ليرة. كما أنني عملت في "الموقف" (وهو مكان تجمع العمال اليوميين). وكنت أشتغل طيلة 12 ساعة متواصلة دون استراحة في حظائر من الكرتون، مقابل ما يعادل 30 يورو وسيل من الإهانات كلما توقفت عن العمل ولو لبرهة؛ حيث يبصقون علي ويرددون «مغربي قذر».

أنا أفضل عبور البحر نظراً لتجربتي في تركيا. ولئن كان لكل مهاجرة تجرته. ها الخاصة مع العنف، إلا أنني أعلم أن العائلات يعيشون في خوف وقلق دائمين متى تعلق الأمر بالعبور من تركيا؛ إذ تعلم العائلات بنتيجة الرحلة إثر يومين أو ثلاثة أيام عند العبور عن طريق البحر، بينما تستغرق رحلة العبور من تركيا وأوروبا الشرقية فترة شهر أو حتى أكثر من عام تقضيها العائلات في انتظار الأخبار عن وضع أبنائهم/بناتهم. وكنت فقدت الاتصال بصديق لي غابت عني أخباره لمدة أربعة أشهر قضيتها أنا وعائلته في البحث عنه، لنعلم إثر ذلك أنه كان (ولازال) في مخيم بمدينة أدرنة التركية.

**منتصر:** كنت قد حدثتني عن البحر فعلاً. ولكن يحدث أن تغرق بعض القوارب، حفظكم الله من ذلك المصير.



**فايز:** صحيح، أنا أفضل البحر لأن ما من عذاب يطول إذا ما قدمت الساعة (الموت) خلال مثل تلك الرحلة؛ إن رحلة العبور عبر البحر أقل عنفاً ومختلفة تماماً عن طرق العبور عبر الغابات والجبال، وهو ما خلصت إليه بعد كثير من التحري والاستقصاء. ولكني رأيت في المقابل مقاطع فيديو مروعة عما يحصل في أوروبا الشرقية، وشاهدت في أحدها مهاجراً يدفن صديقه. كما عاينت بنفسني في مخيم في صربيا مهاجراً جزائرياً فقد ساقه نتيجة السير لفترة طويلة في البرد. كما شهدت في مخيم آخر على مهاجر بترت أصابع قدمه. ففيم الحياة إن بترت قدمي ورميت في مخيم احتجاز لترحيلتي؟ أفضل الموت على مثل تلك الحياة.

**منتصر:** أكنت تبحث عن معلومات حول الأوضاع من خلال مقاطع الفيديو قبيل سفرك؟

**فايز:** بلى، كنت أبحث عن معلومات على يوتيوب ومن خلال الإنترنت عموماً. إلا أنني استقيت معلوماتي أساساً من أصدقاء عادوا من تركيا وآخرين وصلوا إلى أوروبا، وقد أخبروني أن الطريق شاقة وعسيرة وأنه يجب أن أتجنبها. بيد أنني لم أصدق أصدقائي ولا مقاطع الفيديو التي شاهدتها؛ بل ورحت أفقع نفسي بأن هؤلاء الأصدقاء يشعرون بالغيرة وأنهم لا يودون الخير لي. ولم أستوعب حقيقة الأمور إلا عندما شهدت بنفسني صعوبة هذه الرحلة. لقد كانوا محقين في ما قالوه. إنها لمغامرة حقيقية يخاطر خلالها المرء بحياته، وهي تجربة عصية على النسيان إذ تظل راسخة في القلب وفي صميم الروح.

**منتصر:** أليس لديك أقارب في أوروبا يوفرّون لك خطاب دعوة لتقديم طلب تأشيرة زيارة، بدلاً عن عبور البحر بهذه الطريقة؟

**فايز:** بلى، لي أقارب يعيشون بأوروبا. ولي أخت مقيمة بإسبانيا تزوّجت حديثاً وهي في طور تسوية وضع إقامتها القانوني ولم تتقن اللغة بعد. وهي تريد مساعدتي، ولكن كيف يمكنها أن تساعدني؟ إذ لا تملك عقد عمل حتى. أعتقد أنني سأحصل على التأشيرة إذا ما هي أرسلت لي خطاب دعوة بعد أن تسوي وضع إقامتها القانوني؟ أوكد لك أن الأمور لا تجري بهذه الطريقة.

**منتصر:** هل سبق لك أن تقدّمت بطلب للحصول على تأشيرة؟

فايز: طبعاً، لقد سبق وأن تقدّمت بطلب تأشيرة مرتين. وكنت قد دفعت 3000 درهم (ما يعادل 300 يورو) لوسيطٍ يقَدِّم الطلب ويبسّر لي الحصول على التأشيرة من القنصلية الإيطالية في المغرب، إلا أنني قوبلت بالصدمة إذ لم أتلّق أي رد. ثمّ تقدمت بطلب للحصول على تأشيرة في القنصلية الفرنسية ودفعت الرسوم؛ لقد طلبوا مني وثائق لم تكن مدرجة في قائمة الوثائق الأولية، فاضطرت إلى تقديم بطاقة السوابق القضائية ووثيقة السجل العدلي وغيرها من الوثائق الأخرى. ولكن رُفِضَ طلبي ذلك. ثمّ طلب مني وسطاء مبلغ 2000 يورو لقاء التأشيرة، ولكن دون تقديم أي ضمانات لحصولي عليها. فأدركتُ حينئذ أن لا حل لي إلا في الحرقفة. وأنا أدعو الله أن يبسّر لي رحلتي.

وأردت العمل؛ فنقضيت في مدينة الناظور 130 درهماً لقاء عمل يوم كامل (وهو ما يعادل 13 يورو). ألا يُعتبر ذلك استغلالاً فاحشاً؟ كنت أعمل في موقع بناء أخطر فيه بحياتي بلا أي حماية أو ضمانات، فتركت هذه الوظيفة.

منتصر: هل دفعتك أسباب أخرى للهجرة إلى أوروبا؟ أم أن ذلك عائد بالأساس لظروف العمل والظروف المادية؟

فايز: لا يقتصر الأمر على الجانب المادي، رغم أهميته التي لا أنكرها. ولكنني أرى أولئك الذين يهاجرون إلى أوروبا ثم يعودون، وقد تغيروا تماماً، فأصبحوا «زوينين» (حسني المظهر ووسيمين) و«بيض البشرة». ولي قريب كان في حالة رثّة قبل أن يغادر، إلا أنه عاد بعد ذلك وكأنه قد صار شخصاً آخر؛ إذ تغير لون بشرته فصار فاتحاً، حيث أن بضعة أيام وبضعة أسابيع في أوروبا كفيلة بإحداث مثل تلك التغيرات [يضحك]. ألا تصدقني؟ [سألني ثمّ فتح هاتفه الذكي وولج إلى حسابه على الفيسبوك باحثاً عن حساب قريبه على نفس الموقع، ثمّ أراني صورتين إحداهما قبل سفر قريبه المذكور إلى أوروبا، بينما تظهره الثانية بعد وصوله وإقامته هناك. ورأيت في الصورة الثانية شاباً يبتسم ابتسامة عريضة وسط شارع مزدان بالأنوار في مدينة برشلونة. كما أراني فايز مقاطع فيديو أخرى لقريبه في ملاهي تشغّل موسيقى الراي والبوب المغاربي].

هذا ما أقصده. كما أن الأهل يصيرون سعداء عندما يبسّر الله عليك الوصول إلى تلك البلدان (أوروبا)؛ فيقول الأهل أنهم ليسوا بحاجة إلى شيء، وأن همهم الوحيد أن تكون بخير، كما لو أن نجاحك في الوصول أشبه بالخلص. [وقال يسألني بدوره: اصدقني القول رجاء، ألم تشعر بالارتياح والسعادة حين وصلت أوروبا؟ إذ كان صديقي قد أخبرني بأنك مقيم ببلجيكا. ألم تتغير حياتك؟]

منتصر: طبعاً، لقد تغيرت حياتي بلا شك.

فايز: يخبرني بعض الأصدقاء أنهم نّ يشعرون بالملل بعد أسبوعين من عودتهم نّ إلى المغرب لقضاء العطلة. كما يتفق جميعهم نّ على القول: «بلدنا جميل، ولكن العيش فيه يتطلب موارد

مالية»، فالوضع صعب في بلداننا. لقد طلب شرطيّ منّي أنا وصديقي بعض المال قبل ساعات هنا في المطار [يقول بصوت خافت]. أليس ذلك مخزياً؟ [...] الحياة صعبة في بلدنا. والتجارة هي الطريقة الوحيدة لتأمين لقمة العيش، ولكنّ السوق مشبعة والأفاق مسدودة. أمّا الذين يغادرون إلى أوروبا، فيعودون بعد خمس سنوات وبحوزتهم بن سياراة ويشترّون شقة سكنيّة. وحتى إذا ما افترضنا تحصيل فرصة عمل في المغرب، فالرّواتب جدّ متدنية؛ إذ هل يُعقل أن يتقاضى الفرد راتب 100 درهم (10 يورو) لقاء يوم عمل؟ هذا مبلغ لا يسدّ الرّمق ولا يمكن من الادّخار. وأمّا إذا ما مرض المرء، فلسوف يفلس حتماً؛ ولا شك أنك على علم بوضع المستشفيات في المغرب... إنك تتمتع بكامل حقوقك هناك (في أوروبا) إذ يلتزمون برعايتك، بينما تكدح في المغرب آملاً ألا ينتزعوا منك أموالك!

**منتصر:** هل تودّ العمل أم الدّراسة في أوروبا؟

فايز: أودّ أن أعمل بالحلال ("في أيّ وظيفة غير حرام"). ولكن يوجد من يريدون العمل في مجالات غير مشروعة (في عالم الجريمة مثلاً عبر الاتجار بالمخدرات)، ولكنني لا أستطيع أن أفهمهم. إذ مالذي يدفعهم. للهجرة إذا كانوا يريدون الاتجار بالمخدرات؟ لا أعتقد أن العمل مثل تلك المجالات يستحقّ مخاطرة المرء بحياته. أمّا أنا فأريد أن أغترب لأتمكن من العمل وكسب رزقي بشرف وكرامة؛ حيث حصلت على دبلوم تكوين في مجال الحلاقة أسأل الله أن يفيدني في تحصيل عمل هناك. لقد فقدت الرغبة في العمل في صالون حلاقة في المغرب، وذلك تزامناً مع اعتزامي التوجّه إلى تركيا ورغبتي في الهجرة. بيد أنني لا زلت محتفظاً بالمهارات التي اكتسبتها في مجال الحلاقة، والتي كنت قد تعلمتها في مدرسة التكوين.

**منتصر:** ماذا خطّطم بشأن الإقامة في وهران؟ هل ستقيمون بفندق بالمدينة؟

فايز: كلاً، لقد حجزنا فندقاً لأربعة أيّام لا أكثر. وستكون الأمور مماثلة لما جرى في تونس؛ حيث سيخدمنا هذا الحجز الفندقي في إثبات قانونية دخولنا للجزائر أمام شرطة الحدود، مدعوماً في ذلك بوثيقة تأمين السفر وتذكرة العودة. ولكننا سنقضي معظم فترة إقامتنا في منزل الشخص الذي سيتولّى إيصالنا إلى إسبانيا. وسنضطرّ إلى الانتظار هناك لأنّه هو الذي سيتولى مسؤولية تنظيم أمور المهاجرين. وترتيب رحلة العبور؛ إذ يجمع كل من "السّمسرة" (الوسطاء) عدداً صغيراً من المهاجرين. وقد يبلغ ثلاثة أو أربعة أو ستة أشخاص، ثم يقرّر الانطلاق في رحلة العبور متى بلغ العدد 15 أو 20 مهاجراً.

**منتصر:** هل فكّرت في أن تسلك طرقاً أخرى إلى أوروبا؟

فايز: يمكن العبور إلى إيطاليا انطلاقاً من السواحل التونسية، ولكنّ الرحلة تستغرق حوالي

العشرين ساعة؛ ولذا فهي رحلة بصعب تحمّل مشقّتها. كما أنّي أتبيّن مبدأ تجنّب المغامرة المتهورّة، مردّداً في قرارة نفسيّ أنه يجب تفادي المخاطرة المجانيّة التي قد تؤدي إلى الموت. ولذلك أعتبر طريق العبور انطلاقاً من الجزائر أقلّ خطورة، رغم أنّه خيار جدّ مكلف. كما يتعيّن التحلي بالرجولة والصّبر. ويحدث أن ترافقنا النساء في رحلات العبور رغم كلّ المصاعب والعذابات التي يتحمّلنها وهنّ صابرات. وأواسي نفسي بأنّ الساعتين التي تستغرقهما رحلة العبور ليستا بالوقت الطويل، وأنّي يجب أن أحافظ على صلاتي وأن أضع تقّي بالله وأن أتحمّل بالشجاعة التي لن يقدر الشباب على المضيّ قدماً من دونها.

**منتصر:** هل تعرف شباباً من المغرب يشعرون بالتردد؟ أكنت تشعر بالتردد أنت الآخر؟

**فايز:** بالتأكيد، أعرف أشخاصاً يشعرون بالتردد؛ حيث يملك الكثير منهم مالاً اللازم لدفع ثمن رحلة العبور، ولكنهم يقولون أنهم يفضلون البقاء بجانب أمهاتهم وأسرهم. أنا أيضاً ترددت كثيراً بعد ما عشته خلال محاولتي العبور من تركيا. ليست مغادرة الوالدين والإخوة والأخوات بالأمر الهين البتة. ولا يمكن لأحد أن يفهم مدى صعوبة ذلك إلا من خاض هذه التجربة شخصياً، ذلك أنه من الوارد أن تفقد حياتك في أي لحظة. وكان الأمر أصعب على والديّ في حالتي، لأنني الابن الأصغر بين أخواتي المتزوجات جميعهنّ.

**منتصر:** كم لك من إخوة وأخوات؟

**فايز:** لوالديّ أربعة أبناء، أنا وأخواتي الثلاث المتزوجات اللاتي يتمنّين لي حياة كريمة. وزيجاتهنّ لم تعد عليهنّ نفع كبير، فهنّ "يكافحن الضيق". ولا يسعني أن أطلب منهنّ المساعدة، رغم أنّهنّ يرجونني أن لا أتردد في طلبها؛ إذ كيف لي أن أطلب مساعدتهنّ وهنّ اللاتي يربّين ويرعين أطفالاً بالكاد يقدرن على تلبية احتياجاتهم.

**منتصر:** هل تعرف في الحي أشخاصاً حرفوا ونجحوا في تأمين حياة أفضل بعد وصولهم؟ وهل تربطك معرفة بعائلات تبحث عن أبنائها/بناتها المفقودين؟

**فايز:** أجل، أعرف شباباً سافروا ونجحوا في تأمين وضع إقامة قانوني بأوروبا. كما أعرف عائلات غيرت مسكنها ومكان إقامتها لتستقرّ في مناطق أرقى بعد بضع سنوات من وصول أبنائها/بناتها إلى أوروبا. وأعرف بالأخصّ أشخاصاً حظوا بوظائف تتيح لهم عيشاً كريماً في المغرب، إلا أنّهم قرروا تركها واختاروا الحرقة. لقد رافقني صديق إلى تركيا في رحلتي الأخيرة كان الابن الوحيد لعائلته؛ ورث هذا الصديق مبلغاً محترماً كان ليخوّله "بدء مشروع تجاري" بعد أن كان قد فقد أباه مؤخراً، ولكنه فضّل المغادرة نحو أوروبا. وهو نفس الصديق الذي كنت قد أخبرتك سابقاً عن اعتقاله لمدة عام في مخيمٍ لاحتجاز المهاجرين. أت بمدينة أدرنة التركية لعدم حيازته جواز سفر. إنّه عازم على مواصلة رحلة العبور غير عابئ بالمخاطر إذا ما أطلقت السلطات التركية سراحه. وأعرف شخصاً آخر غادر في العام 2018 لكنه لم يعد إلى المغرب بعد ذلك، وهو الآن

مقيم بطريقة غير قانونية في بلجيكا.

**منتصر: كم يبلغ عمرك؟**

**فايز: 19 سنة ونصف. وُلدت في العام 2004.**

**منتصر: ماذا ستصنع بجواز سفرك ما أن تَعَبَرَ البحر؟**

**فايز: سأحتفظ بجواز سفري حتى يوم المغادرة، ثم سأجد طريقة لإرساله إلى أحد المعارف في المغرب وأطلب منه إيصاله إلى أمي. لأنني إن شاء الله سأحتاج إليه في إسبانيا وإن كان عن بعد.**

**منتصر: ألا تريد الاحتفاظ بجواز سفرك بحوزتك؟**

**فايز: كلاً، لأن الشّركة ستحصل على كل المعلومات الشخصية عني وسيسهل بذلك اتخاذ قرار بترحيلي إذا ما ضبطتني وبحوزتي جواز سفري. كما أنني يجب أن أكسب الوقت وأن أظّاهر بأنني قاصر دون سنّ الرشد القانونية، حتى وإن كانوا سيعلمون الحقيقة ولو بعد حين. ولا يُخَوَّل للسلطات ترحيل المهاجرين. ات غير الحاملين. ات لجواز سفر؛ إذ ينبغي عليهم أن الإفصاح عن هويتهم. وعدم تقديم أي وثائق رسمية تثبتها.**

**منتصر: هل بات من الصّعب الوصول إلى أوروبا انطلاقاً من المغرب؟**

**فايز: أجل، فقد ازدادت التدابير الأمنية صرامة. وأعرف أشخاصاً غادروا في العام 2022 انطلاقاً من قرية بليونش على متن دراجات مائية (جيت سكي) باعتبار أن الرحلة إلى الأراضي الإسبانية لا تتجاوز مدة 15 دقيقة من هناك. ولكن لم يعد من الممكن الآن العبور من تلك المناطق القريبة؛ فلئن لا تتجاوز المسافة التي يجب قطعها لبلوغ الساحل الإسباني الـ14 كيلومتراً، إلا أن المنطقة تعجُّ بقوات الشرطة التي تنتشر دورياتها بكل مكان. وصار الآن لزاماً العبور انطلاقاً من المحيط الأطلسي أو قطع بعض مئات الكيلومترات باتجاه البرتغال. كما يعمد البعض إلى السّباحة في محاولة للعبور نحو إسبانيا متى تراخت الرّقابة ظرفياً، ولكنها مخاطرة قاتلة. لقد توفي ابن أخ جار لنا كنت قد التقيت به من قبل جرّاء مثل هذا التهور. هذا الشاب هو أصيل كتامة بمنطقة الرّيف في شمال المغرب، وقد تملكته فكرة الحرقة فاختر أسوأ الحلول، حيث سافر من كتامة إلى مدينة الناظور بهدف الوصول إلى مليبية بإسبانيا؛ وسلك في سبيل ذلك مجاري مدينة الناظور للوصول إلى البحر قبل أن ينطلق في السّباحة باتجاه مليبية. لقد توفي رحمة الله عليه منذ ثمانية أشهر. غير أنني لم أفهم يوماً ما يدفع البعض إلى محاولة العبور عن طريق البحر في حين أنهم من لا يجيدون السّباحة؛ يمكن لأيّ كان أن يموت في عرض البحر، ولكن لا بد من إجادة السّباحة قبل الإقدام على هذه الخطوة. أمّا أنا فقد داومت على ممارسة السّباحة في المسابح والأنهار وفي البحر منذ الصّغر. ولئن كنت على وعي بأنّ إجادتي السّباحة ليست ضماناً لشيء، إلا أنّ ذلك عامل مطمئن ومفيد.**

اللهم احفظنا! يجب أن نصلي قبل الصعود إلى القارب. يردد الناس الشهادة [وكانهم ن يستعدون للموت]. وحده الله الحامي.

[...] وكما سبق أن أخبرتك فإن معظم من يأتون إلى الجزائر هم من الحرفيين. ات لعلمهم. ن أن بإمكانهم. ن الإقامة والعمل في الجزائر إذا ما استحال العبور إلى إسبانيا. وينطبق ذلك علي أيضا، حيث سأتجه للعمل اليومي في الحلاقة أو مجال المقاولات أو الدهان والديكور أو غيرها من المهن إذا لم أوفق في الحرفة. وإن ما يهمني في تلك الحالة هو كسب الرزق والقدرة على إعانة والدي ولو قليلا؛ فأنا ما غادرت المغرب إلا لأقيم لأطول فترة ممكنة سواء في أوروبا أو في الجزائر. فأنا لم أت لمجرد قضاء بضعة أسابيع، وإنما غادرت كي أغير حياتي نحو الأفضل. ما عساي أعمله إذا ما عدت إلى المغرب؟ لم يتبق لي ما أعمله هناك. ولذلك قررت المغادرة طلبا لخوض تجارب جديدة. إن أسوأ ما قد يحدث هو أن أقيم بالجزائر لأتقن مهنة جديدة. ويشاطرنني صديقي نفس العزم؛ إذ كان قد أغلق صالون الحلاقة المملوك لوالديه وقدم طلبا لحياة أفضل. كان صديقي متوترا لدرجة أنه أتى بمفاتيح صالون الحلاقة معه! [...] أنا مضطرا للانسحاب الآن لجلب هاتفي وشاحنه من عند الشرطي.

يوصل آيماز نيانيزي بيسوكا (Aymar Nyenyezi Bisoka) في كتابه «أدبيات النقد الأفريقيّة: مقال في السياسة الخفية لنضالات الأفارقة السود» (Afrocritique : Essai sur l'infra-politique des luttes noires) تحليله للسياسة النكرووية (La Nécropolitique) التي تستهدف الأفارقة السود، سائرًا بذلك على خطى أشيل مبمبي (Achille Mbembe)<sup>11</sup> وفيلوين سار (Felwine Sarr)<sup>12</sup> ونورمان آجاري (Norman Ajari)<sup>13</sup>. ويعزّي بيسوكا على نحو لاذع آثار الحدود الأوروبية والنظام القانوني الذي يدعمها ودورها في سحق حياة الأفارقة السود، بالإضافة إلى إبراز سعي هذا التقليد النقديّ إلى تفكيك<sup>14</sup> تلك الإيستمولوجيا البيضاء والعنيفة:

“ توصل أوروبا على الرغم من خطابها الإنسانيّ معاملة الأفارقة السود ككائنات أدنى شأنًا من البشر [...] فقد استحال البحر الأبيض المتوسط منذ عدة سنوات مقبرة مترامية الأطراف لا تحرك فيها أوروبا ساكنًا أمام مشاهد غرق عشرات الآلاف من الأفارقة السود الذين نجوا من ويلات العبوديّة في شمال أفريقيا الذي صدرت إليه أوروبا حدودها. وأمّا أولئك الذين يتمكّنون من عبور البحر فغالبًا ما يُحتجزون في ظل ظروف غير إنسانية في المخيمات العديدة المنتشرة في أنحاء أوروبا؛ يُقيّد بعض هؤلاء السجّاء ويُعادون قسرًا إلى الصحراء الكبرى، حيث تعهد أوروبا إلى بعض الدول والمرتقة بمهمة ترحيل هؤلاء البشر من الدرجة الثانية. وأمّا الذين يتمكّنون من بينهم من الهرب فليسوف يموتون بردًا أو جوعًا في شوارع كبرى العواصم الأوروبية، أو سيتشبثون بمشقة بقاع شاحنات نقل البضائع المتجهة إلى إنجلترا لينتهي بهم المطاف بتحطم جماجمهم على طول الطرق المُعبّدة المؤدية إلى تلك البلاد.<sup>15</sup> ”

يُمكن الإسهام الذي يقدمه هذا المقطع الذي وثّقه ببراعة فقيه قانوني أفريقي الأصل في تكثيره بالمنهج النيكروويّ الذي تتبّعه أوروبا بوصفه من تعبيرات الهيمنة الاستعماريّة البيضاء؛ حيث يترك المهاجرون.ات ليلاقوا حتفهم.ن بطرق عنيفة واستعراضية في ذات الآن. كما يقدّم بيسوكا شرحًا دقيقًا ومفصّلًا للإطار القانوني والخطابي لهذا المنهج حين يقول: “يُحظر على قباطنة السفن في البحر الأبيض المتوسط وعلى سائقي الشاحنات على الطرق البريّة مساعدة هؤلاء الأفارقة السود. أوروبا هي التي منعت ذلك، فهي لم تكف بتبيان أن هذه الأرواح المُرهقة لا قيمة لها، بل تحرص كل الحرص على أن يصير حتفهم.ن بهذه الطرق الفظيعة المعروضة للعيان عبرة لغيرهم.ن من الناجين.ات.”<sup>16</sup>

يثير هذا التحليل مسألة جوهرية إذا ما فُحص من منظور بلدان شمال إفريقيا التي صارت الآن جزءًا من منظومة تصدير الحدود وتعهيد إجراءات الترحيل. ولئن كان بإمكاننا مناقشة بعض جوانب هذا التعهيد (ولا سيما حرص حكومات دول شمال أفريقيا على ألا تستثني الشعوب المغاربية في إطار تطبيقها للأوامر والتعليمات الأوروبية بقمع حرية التنقل والإدارة النيكرووية لمسألة الهجرة)، إلا أن خطر ترسيخ الانقسام التحليلي بين الأفارقة السود وأفارقة شمال أفريقيا في أعمال الباحثين.ات والمتفقين.ات الأفارقة لا زال قائمًا؛ أمّا الواقع فيبرهن عن أن هذه الآليات التدميرية لا زالت تعمل بشكل مستمر ودون تمييز بين المهاجرين.ات المحرومين.ات من التأشيرات و«تسوية وضع الإقامة القانوني»، ليقعوا.ن بذلك ضحاياًا للتسلسل الهرمي العرقي الذي فرضته أوروبا. وتطبق

11 أشيل مبمبي، (السياسة النكرووية)، مجلة Raisons politiques، مرجع مذكور سابقًا.

12 فيلوين سار، أفروتوبيا (Afrotopia)، منشورات Philippe Rey، باريس 2016.

13 نورمان آجاري، «المانيفستو الديكولونيالي الأفريقي: ال الضائع للسياسة الراديكالية للأفارقة السود» (Le manifeste afro-décolonial. Le rêve oublié de la politique radicale noire)، منشورات Seuil، باريس، 2024.

14 آيماز نيانيزي بيسوكا، أدبيات النقد الأفريقيّة: مقال في السياسة الخفية لنضالات الأفارقة السود (Afrocritique : Essai sur l'infra-politique des luttes noires)، منشورات Eterotopia، باريس، 2025، ص. 80.

15 المرجع نفسه، الصفحات 92 . 93.

16 المرجع نفسه، ص 93.

بذلك هذه الآليات على جميع الأفارقة بغض النظر عن تاريخهم، وانتماءاتهم، العرقية أو الدينية أو اللغوية.

ليس المقصد في هذا المجال إنكار خصوصية الزنوجة (Négritude) ولا التجربة الفريدة للعنصرية ضد السود بوصفها عنصرية بنيوية ومتجذرة في الغرب يُعاد إحيائها مع كل تحريض أو تلاعب حكومي، كما هو الحال داخل الجماعات القومية الأفالوية التي استمالتها أنظمة وأنماط الحكم في شمال إفريقيا. وإنما يتعلق الأمر بالتشديد على الترابط بين تجارب الهجرة التي يعيشها جميع الأفارقة وشعوب المستعمرات السابقة الذين باتوا اليوم مُستهدفين من قبل اتفاقية شنغن وسياسات الهجرة الأوروبية. وتكتسب إدانة الفصل التعسفي بين فئات الأفارقة راهنية متجددة في مرحلة ما بعد الإستعمار خصوصاً عند الاستناد إلى التحليلات الرائدة لفرانز فانون أومفاهيم من قبيل «متلازمة شمال إفريقيا» (Syndrome nord-africain)<sup>17</sup> و«معدبو الأرض» (Damnés de la terre)<sup>18</sup>؛ إذ تظل الحدود بأشكالها المتجددة عاملاً من عوامل العنف الاستعماري. وإن العنصرية التي تمارسها حكومات شمال إفريقيا تحت ضغط آليات تصدير الحدود، فضلاً عن نقشي الكراهية في المجتمعات التي تشكلت بفعل الإرث القومي (من تونس إلى مصر ومن المغرب إلى الجزائر) أو بفعل الحروب الأهلية (من ليبيا إلى السودان ومن سوريا إلى لبنان) لا ينبغي أن تحجب البنية الأساسية التي توجج هذه الحرب التي تشنها الحدود الاستعمارية؛ حيث لا مساواة إلا في إطار سوء المعاملة وتجلياته المتراوحة بين تعريض حياة المهاجرين.ات لمخاطر الموت والتعرض للأذى والاختفاء.

لو توافرت بيانات إحصائية إثنية لكشفت حجم الدمار؛ إذ يموت أو يُفقد أو يتأذى المغاربة والتونسيون.ات والسودانيون.ات والسوريون.ات والجزائريون.ات جنباً إلى جنب مع إخوانهم وأخواتهم من السنغال والكاميرون أو من غرب أو شرق أو وسط أفريقيا في نفس تلك المناطق الحدودية. وذلك ما تثبته الدراسات الاستقصائية المُجرأة في شمال إفريقيا والمقابلات مع عائلات المفقودين.ات وما لوحظ في قرى يكتنفها الحزن من جزاء الغياب وانتظار وترقب أبدي لعودة المفقودين.ات، فضلاً عن روايات الناجين.ات مثل فايز وصلاح وغالي؛ إن آلة الحدود الأوروبية مُعينة في طحن وسحق الأجساد الأفريقية.

غير أن فعل اجتياز الحدود المحظورة لا يزال يحمل في طياته كل مظاهر الشجاعة النابعة عن إرادة حقيقية في مقاومة العداة والنزعة الاستعمارية الجديدة. وقد لمسنا ذلك في المقابلات الواردة في هذا الفصل؛ حيث تُبرز التجارب التي عاشها كل من فايز وصلاح وغالي جانباً أساسياً من جوانب الأنثروبولوجيا المعاصرة للهجرة المحظورة، إذ تُظهر أن قرار المغادرة ليس تصرفاً طائشاً ولا هو بالبادرة الحاملة المُستوحاة من أسطورة «الدورادو» الأوروبية، بل هو نابع من اقتصاد أخلاقي وعلائقي وبراغماتي زاهر بمعرفة دقيقة بواقع رحلة العبور. أما عن الدافع الأصلي فهو مرتبط بالمحاكاة والتقليد؛ إذ تتشكل [الرغبة في] الحرقفة في إطار قصص نجاح أصدقاء الحي الذين غادروا إلى أوروبا والرغبة في «تحقيق مثل ذلك النجاح». وينوّه فايز بالبعد الجماعي لفعل المغادرة وبأهمية رضا الأم ونيل مباركتها. وأما المعلومات عن طريق رحلة العبور فتستقى من الذين نجحوا.ن في الوصول إلى أوروبا؛ بيد أن المحن المجتازة في البلقان هي التي تعيد تشكيل وتكييف تلك المعارف بتقييمها ومراجعتها وتعديلها على الدوام. والعنف لا يلغي الرغبة بل يُعقلنها، لينتج عن ذلك خبرة ومهارة في موضوع الهجرة و إبتيقا تضبط فعل المغادرة.

تدلل تجارب فايز وصلاح وغالي على أن الوعي باحتمال الموت ومدى قربهِ وواقعيته لا يعيق مشروع الهجرة، بل إنه يهيكل هذا المشروع الذي يصير بذلك أكثر انضاحاً واستراتيجية ويعزز من صبغته الجمعية. وتكمن قابلية تمثل فعل الحرقفة المعاصر في التقاطع بين الوعي بالموت واقتصاد رحلة العبور والنضال سعياً وراء الكرامة.

لا تكتفي السياسة النكرووية الأوروبية في هذا السياق بتعريض الناس لخطر الموت وحسب؛ بل إنها تخلق الظروف الملائمة لتشكيل معارف في مجال الهجرة تقاوم هذه السياسة، وهي معارف تعيد تشكيل نفسها وتنتقل من جيل إلى آخر على الرغم

17 «متلازمة شمال أفريقيا» [1952] (Syndrome nord-africain)، ورد ب: فرانز فانون، من أجل الثورة الأفريقية: كتابات سياسية (Pour la révolution africaine. [crits politiques)، منشورات La Découverte، باريس، 2006.

18 فرانز فانون، معدبو الأرض (Les damnés de la terre)، منشورات Maspéro، باريس، 1961.

من القمع المستمر للأجساد. إنها سياسة تنتج ذات المهاجرين. ات الذين تدعي سعيها لمنعهم.ن، بينما تدمر في ذات الآن وجودهم.ن المادي والاجتماعي. ولعل المهمة المستقبلية لسيادة الدول الأفريقية وللحكومات والحركات الاجتماعية في الجنوب العالمي عموماً تتبلور في هذا التناقض الجوهرى؛ حيث يتعين الاعتراف بهذه النزعة الاستعمارية الجديدة القاتلة وتسمية هذه السياسة النكرووية بمسماها وتقييم ذوات المهاجرين. ات والمجتمعات المنكوبة التي ينتمون إليها بهدف إتاحة إمكانية التفاوض حول الحق الأساسي في حرية التنقل وإعادة إرساء توازن قوى أكثر عدلاً في مواجهة سياسات الهجرة المفروضة والمُستوردة.